الإمام علي

و فضائله

كتاب يبحث في غزارة علم الإمام وتقاه وزهده وحلمه وكرمه
وقربه ومناقبه

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

www.haydarya.com

الإمام علي

و

فضائله

الإمام علي

الثاني

و

فضائله

كتاب يبحث في غزارة علم الإمام، وتقاه وزهده وحلمه وكرمه
وحروبه وبلاغته

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت ـ لبنان

حقوق الطبع محفوظة

تَقْديم

الحمد لله رب العـــالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .

أما بعد :

فإن من أراد ان يتقصى سيرة عترة رسول الله وآله بالأسلوب الذي سبق ان كتب به الأوائل ممن احبوا رسول الله وأهل بيته فراحوا بدافع هـــذا الحب يكيلون الإطراء والثناء والإعجاب بشكل وافر وبدون حساب فهم وإن كانوا اهلاً لمثل هذا الثناء والإطراء وموضعَ الإعجاب والإكبار إلا أن ذلك لا يأتينا بفائدة تذكر . إذ مـا فائدة تعداد الفضل في إنسان وتدوين مناقبه ومآثره دون ان نسبر غور نفس هذا الانسان ونستخرج مـا فيها من أسرار ومـا تنطوي عليه من مُثل ومـــا تهدف إليه من غايات نبيلة سامية وأهداف عالية وكيف نستطيع ان نفيد منها أو نحذو حذوها .

وإن مثل هذا العمل الجليل يحتاج الى عـــلم وافر وذكاء متقد ودقة في البحث خصوصاً إذا كان البحث في شخصية فذة ذات عبقرية ندر نظيرها

مثل الإمام علي أمير المؤمنين . وإن سواد الذين تطرقوا للبحث عن هـــذه الشخصية الفذة والعبقرية النادرة مـا زال قولهم فيه على نسق واحد ووتيرة واحدة فهم في قولهم هذا فيه كما قال الشاعر :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

ونعني بذلـك أنهم لم يطوروا الحديث عنه بمـــا يتلاءم مع تطور العقول وارتفاع درجة ثقافة البشر ودون ان يراعوا النضوج الفكري في الناس .

فمثلاً ان العصر الذي عاش فيـه الشيخ المفيد غير عصرنا الحاضر فإن أي كلمة كان يقولها هـذا الشيخ الجليل القدر كانت تنزل في نفس سامعها منزلة الرضى والقبول بلا قيد أو شرط غير ان هذا الشيخ لو عاش في هـذا العصر وقال نفس الكلمة لتعرض للنقاش والأخذ والرد حتى يدعم كلمته تلك بحجج قوية وأجوبة منطقية دامغة .

فمن أراد ان يتصدى للكتابة فلا بد له من ان يبـــذل جهداً في البحث والدراســة والتحليل على ضوء تطور الأحداث ومـــا جدّ عليها من تغيرات وتقلبات حتى يستطيـع ان يستنبط من الحديث عن الأفذاذ والعباقرة المثـل والعبر من حياتهم كيما يستطيـع القارىء ان يستفيد منها ويعتبر بهـا بشكل مباشر أو غير مباشر .

على اننا لا ندعي ان لنا من بعـد النظر وحسن التمحيص أكثر من غيرنا ممن بحثوا سيرة الإمـام وكتبوا عنه غير ان أولئك غلبت عليهم العاطفة في كتابتهم كما أسلفنا من جهة ومن جهة أخرى فإن انصرافنا لدراسة مآثر هذا الإمـــام العظيم فترة شغلت نصف العمر الذي عشناه منكبين على التحصيل والمعرفة وقد ناهزنا العقد الخامس منه ممـــا جعل في قلبنا فيضاً من نور الله نستضيء به فتتجلى لنا عبقرية الإمام بشكل بيّن واضح .

وقد ركزنا في البحث على حروب الامام بشكل خاص سواء حروبه مع الرسول أو بعده لأن هذه الحروب جاءت في كتب الذين التفوا فيها بشكل مطول يصعب على القارىء ان يتفهم حقيقتها ويقف على أغراضها ومراميها وغاياتها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه الحروب تظهر عبقرية الإمام ونبل غاياته ومقاصده بأجلى مظاهرها ، وتبين بشكل واضح ما كان عليه الإمام من حبه للسلم ورأفته حتى بأعدائه وانه ما حارب إلا من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه القويم وإنصاف الضعفاء والمظلومين .

ثم إننا نحاول في كتابنا هذا ان نسفه آراء أولئك الذين حاولوا ان يوجدوا ثغرة للتفرقة بين السنة والشيعة وفصم ما بينهم من عرى قوية متينة بسبب اهوائهم في حين ان هذه الروابط مستقاة من مصدر واحد هي الكتاب والسنة ومنها هذا الحديث : « ان الله جعل لأخي علي فضائل لا تحصى كثرة » ، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقراً بها غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن كتب فضيلة من فضائله لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم ، ومن استمع الى فضيلة من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالاستماع ، ومن نظر الى كتاب من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر »[1] .

والله نسأل ان يسدد خطانا ويلهمنا الصواب فيما نحن بصدده في هذا الكتاب وما نتوخاه فيه من النفع للأمة الاسلامية شيعتها وسنيها وليس أدل على حسن نيتنا من أننا لم نشأ أن نذكر اسمنا على هذا الكتاب كعادة المؤلفين والله الموفق وهو من وراء القصد .

---

(١) انظر صحة هذا الحديث في كتاب «دلائل الصدق» الجزء الثاني ص ٣٢٠ وما بعدها .

سبب موالاة الشيعة لأهل البيت

الزيف من القول والصحيح منه في أهل البيت .

روي عن الإمام جعفر الصادق الحديث التالي : « ما جاءكم منا مما يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ، ولم تفهموه ، فلا تجحدوه ، وردوه إلينا، وما جاءكم عنا مما لا يجوز أن يكون في المخلوقين ، فاجحدوه ولا تردوه إلينا » .

إن الإمام لم يجهر بهذا الحديث إلا وقد سمع ما يشاع وما يقال عن آبائه وأجداده او عن غيرهم من العظماء من الخوارف والمعجزات مما لم يأتوا ولا لهم به علم . ونضرب لذلك مثلاً قصة مشهورة الرواية ويتداولها الأجيال هي أن الإمام عليه السلام ركب فرساً وصعد به الى السماء وأصحابه ينظرون إليه .

وبرغم إيماننا العميق بأن لأهل البيت كرامات تخرج عن المألوف بين البشر فهي مما يجوز أن يكون في المخلوقين فلا تتجاوزهم او تتعدى صفاتهم البشرية . وهذا ما دفع الإمام الصادق لأن يحذر في حديثه الآنف الذكر بعدم المغالاة في أهل البيت مما يشعر بتجاوزهم حدود البشرية والإنسانية ويتضح ذلك من حديثه التالي بهذا الصدد أيضاً : « حذروا شبابكم من الغلاة

لا يفسدوهم ، فإن الغلاة شر خلق الله ، يصغرون الله ، ويدعون الربوبية لعباده ، وما من أحد يعتقد الألوهية في إمام جليل عظيم اكتسب هذا الجلال والعظمة من خلال طاعته لله وإيمانه العميق بـــه وإخلاصه في عبادته له وخوفه منه .

ايمان الشيعة وعقيدتهم :

إن الإمام الصادق في قوله : « ما جاءكم منا مـــا يجوز أن يكون في المخلوقين » قد وضح بأن ما يعزى إليهم من صفات هي مما يتصف به المخلوق دون الخالق وبهذا القول فصل ما بين الزيف والصحيح فيما نسب الى الشيعة ووضع النقاط على الحروف فأعلن أن إيمان الشيعة وعقيدتهم في أئمتهم تنحصر في ان الله واحد لا شريك له من مخلوقاته وأنه سبحانه الرازق لعباده وعنده علم الغيب لا يعلمه غيره كما قال النبي الكريم «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» كما يعتقدون ان الله جلت عظمته لا يحل بأحد ولا يتحد به وأن لا نبي بعد محمد بن عبدالله كما ان الايمان بإمامة الأئمة لا يغني صاحبه شيئاً ، إذا هو لم يقم بالفرائض التي فرضها الله على عباده من الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحج لمن استطاع اليه سبيلا كل هذا بعد أن يقر ويعترف بـأن الله واحد لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

لماذا توالي الشيعة اهل البيت :

إن الشيعة يعبدون الله وحده ولا يشركون في عبادته أحداً . وهم حين يحيون ويموتون على ولائهم لآل النبي فمـــا ذلك لأنهم خيار الناس والطاهرين ذوي النفوس العابدة القانتة يعرفون حـلال الله فيتبعونه كما يعرفون حرامه فيجتنبونه ليس لهذا فحسب توالي الشيعة عترة الرسول وآله ولا لأنهم رفعوا

من شأن دين الله وأعلوا كلمته بل لأنهم صورة واضحة كاملة لرسول الله قالت عائشة رضي الله عنها : « مـا رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله من فاطمة وحدث الرواة والمؤرخون أن فاطمة أتت الى أبي بكر وهو في جمـع من الصحابة والمؤمنين تطالب بفدك ومشيتها مشية رسول الله ومنطقها منطقه فلما رآها المسلمون فتذكروا أباها وراحوا يجهشون بالبكاء فكان ذلك اليوم كيوم انتقل فيه الرسول الكريم الى الرفيق الأعلى لم ير اكثر باكياً وباكية .

ومما جاء في خطبتها المشهورة : « نحن وسيلة الله في خلقه، ونحن خاصته ومحل قدسه ، ونحن حجته في غيبه ونحن ورثة انبيائه » فمن ذا الذي يسمع هذا الكلام وهو يؤمن ايماناً صادقاً بالله ورسوله ولا يهيم حباً بآل البيت بعد أن يدرك ويتفهم معناه فهم وسيلة الى الله في خلقه وهم حجته وهم محل قدسه ومن هنـا وجبت طاعتهم كما تجب طاعة رسول الله بنص القرآن الكريم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » [1] .

هل ثمة تناقض بين فاطمة وعلي في فدك :

قال علي أمير المؤمنين : « ماذا أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها ، وتغيب أخبارها » ؟

إذاً لماذا طالبت فاطمة بإصرار بفدك ؟ الجواب أن غايتها كانت أبعد من فدك كانت غاية على جانب عظيم من السمو والنبل لا فدك ولا مـا في الدنيا كلها من متاع .

---

(١) النساء آية ٧٩ .

كانت الغاية احقاق الحق والعمل بالقسطاس المستقيم وإعطاء كل ذي حق حقه قـــل او كثر كما أنها أرادت أن تفهم القوم انهم أحدثوا في الإسلام مالم يكن منه وتعجلوا أمراً كان يجب عليهم التأني فيه. فاستمع إليها الى هذا النص في خطبتها : « سرعان ما أحدثتم وعجلان مـا أتيتم ، الآن مات الرسول ، فأمتم دينه وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته وأنبأكم بهـا قبل وفاته « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين».

نعم إن هـذه الآية نزلت يوم أحد في اولئك الذين تخلوا عن النبي وفروا هاربين حين أرجف الناس بقتله فكيف أخذ بها حجة على من صرف الخلافة عن علي .

لنتأمل ما ورد بعدها « إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » قـال الإمام الباقر عليه السلام : « أصاب علياً يوم أحـد ستون جراحاً فأمر النبي بعد انتهاء المعركة بعض النساء ان تداوي جراحه ، فقلن : يا رسول الله لا نعالج منه مكاناً إلا انفتق مكان ، فدخـل عليه الرسول وجعل يمسح الجراح بيده ويقول :«إن رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر» فكان القرح الذي يمسه النبي ، يلتئم لساعته فقال علي : الحمد لله ، إذ لم أفر ولم أولّ الدبر ، وكان هو المقصود بقوله سبحانه : « وسيجزي الله الشاكرين » فالذين تخـــلوا عن النبي يوم أحد وفروا هم الذين منعوا فاطمة فدكاً وهم الذين لم يكونوا مؤمنين حقاً ، فالمؤمنون ايماناً صحيحاً صادقاً هم الذين ثبتوا مـــع النبي يوم احد وأصابهم القرح وفي طليعتهم هـذا الذي ملىء جسمه جراحاً يستحق لأجلها التقدير والتقديس والإجلال ويستحق لأجلها الحب والولاء والطاعة لأنه مـا عرض نفسه لها بل للموت لشهرة يبتغيها او عرض من أعراض الدنيا ومتاعها

يريده بل أراد اعلاء كلمة وهي كلمة والتوحيد ترددها البشرية قاطبة في كل أنحاء المعمورة على المآذن ونوق المنابر وهي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» نعم من أجل اعلاء هذه الكلمة عرض نفسه للهلاك وأصيب في معركة واحدة بستين جراحاً ومن أجلها استشهد مضرجاً بدمائـه الزكية في بيت الله وهو بين يدي ربه فهو في جهاده قدوة حسنة لرسوله الله فيه جميع صفاته ثم جاء اولاده وأحفاده وذريته من بعده فسلكوا نفس الطريق بنفس الروح وقضوا كذلك نحبهم ما بين شهيد ومسموم .

فكيف لا تدين الشيعة بالولاء خالصاً لوجه الله لعلي وذريته

الحجج الدامغة

في مبررات ولاء الشيعة لأهل البيت

جـــاء في كتاب « مناقب آل ابي طالب » لمؤلفه محمد بن علي بن شهر اشوب ما يلي :

إن النبي قال: يا علي لك أشياء ليست لي منها : لك زوجة مثل فاطمة وليس لي مثلها ، ولـك ولدان من صلبك وليس لي مثلهما من صلبي ، ولك مثل خديجة حمـاة وليس لي مثلها حمـــاة ، ولك صهر مثلي وليس لي صهر مثلي ، ولك أخ مثل جعفر وليس لي أخ مثله في النسب ، ولك أم مثـــل فاطمة بنت أسد الهاشمية المهاجرة ، وليس لي مثلها » .

وروى الطبري مثـل هـذا الحديث في كتاب « الرياض النضرة » الجزء الثاني صفحة ٢٦٨ طبعة ١٩٥٣ قال : « روى أبو سعيد في شرف النبوة ان النبي قال لعلي : أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحـد ولا أنا : أوتيت صهراً مثلي ولم اوت أنا مثلي، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي ولم أوت مثلها زوجة،

وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما ولكنكم مني وأنا منكم... وفي رواية أوتيت اربعاً والرابعة لولاك ما عرف المؤمنون اشارة الى قول الرسول : « من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وإن المتتبع لفضائل أهل البيت في جميع كتب أهل السنة يجد أن ما من فضيلة أو مأثرة من فضائلهم ومآثرهم يذكرها أهل الشيعة إلا ويذكرها أهل السنة ولا يكون ثمة فارق إلا ما هو موجود بين الحديثين المتقدمين ومن الطبيعي ان لا يكون للرسول زوجة أبوها أشرف الأنبياء وخاتمهم ومن الطبيعي كذلك ان لا تكون له زوجة كفاطمة الزهراء سيدة نساء العالم ولكن من الطبيعي ان يكون له ابناء للصلب .

الحسن والحسين هما إبنا الرسول حقيقة :

إذا لم يكن للرسول ﷺ أبناء من زوجاته اللاتي تبنى بهن غير انه لم يفقد الذرية والنسل ولم يحرم من الأبناء فإن الحسن والحسين ابنان له بنص القرآن فلنستمع الى هذه الآية الكريمة « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »[1] .

لقد اتفق المفسرون من الشيعة والسنة على أن المقصود بأنفسنا النبي وعلي ، وبنسائنا فاطمة ، وبأبنائنا الحسن والحسين .

قال الرازي في تفسيره الكبير : « هذه الآية دالة على ان الحسن والحسين

---

(١) آل عمران ٦١ .

كانا ابني رسول الله ﷺ وعد النبي أن يدعو أبناءه ، فدعا الحسن والحسين فوجب ان يكونا ابنيه » .

وروي عن النبي بحديث متواتر أنه قال : ولداي هذان إمامان قاما أو قعدا ، وقال : هما ريحانتاي من الدنيا .

وروي عن الإمام أحمد أن النبي قال : كل ولد أب فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا أبوهما .

وقال الإمام علي في محمد ابن الحنفية : إنه ابني ، أما الحسن والحسين فإنهما ابنا رسول الله .

وقال السيد المرتضى: ان آية المباهلة[1] تدل على ان ابن البنت ابن حقيقة.

زوجات الرسول :

أردنا من ذكر زوجات الرسول لنثبت ذريته من جهة ولنؤكد بنوة الحسن والحسين له من جهة أخرى .

لقد تزوج الرسول بالكثيرات ونقتصر هنا على اللاتي أنجبن أولاداً وبنات.

لقد تزوج الرسول خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وولدت له ذكرين: القاسم وعبد الله . وأربع إناث هن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

ومارية القبطية وولدت له ابراهيم ومات أولاده الثلاث وهم أطفال وبقيت البنات .

أما زينب فقد تزوجها أبو العاص بن الربيع قبل الاسلام وولدت له بنتاً

---

(١) الآية ٦١ من آل عمران :

وهي أمامة تزوجها الإمام بعد فاطمة بوصية منها ولم تنجب أولاداً .

وتزوج رقية عتبة بن أبي لهب عم الرسول . أمـا أم كلثوم فقد تزوجها أخوه عتيق بن أبي لهب وبعد الإسلام طلقها النبي من عتبة وعتيق ولم تنجبا أولاداً . فتزوج رقيـة عثمان بن عفان وولدت منه ولداً ذكراً وهو عبد الله ومات في السنة السادسة من عمره . فتزوج بعدها أختها أم كلثوم ولم تنجب ولداً . وتوفيت زينب ورقيـة وأم كلثوم في حياة النبي ولم يبق له من الولد إلا فاطمة ولا ذرية له إلا منها .

عاطفة الأبوة :

من جملة الغرائز البشرية الفطرية ان يشعر الانسان بميل شديد للولد وحب لوجوده لا فرق في ذلك بين عازب ومتزوج .

فكثير من النـاس من لا يقدر لهم الزواج فلا تزول من نفوسهم عاطفة الأبوة فتراهم ينصرفون بهذه العاطفه نحو ابن أخ أو أخت أو قريب أو صديق أو جار فيتولونه بالرعاية والعناية وكأنه فلذة من كبدهم وكثيراً مـا يتبنى المتزوجون ولداً يتيماً فتراهم يحبونه حبـاً جماً ويعطفون عليه عطفاً يؤثرونه به على انفسهم ويورثونه ايضاً أو يدخلونه فينسبهم ولذلك قال الرسول «سلمان منا أهل البيت» وهو معروف أنه كان فارسيّ الأصل كما كان جعفر الصادق يسميه بسليمان المحمدي .

فكيف بنـا بمن هو ذروة في الأخلاق الرفيعة والعواطف النبيلة والشعور الرقيق والحس المرهف ومن يحمل بين جنبيه قلباً رؤوفاً شفوقاً رحيماً كالرسول الكريم محمد ﷺ .

فإذا حُرِم عليه الصلاة والسلام من الأبناء وأبناء الأبناء ولم يبق له نسل ولا ذرية إلا من ابنتـه فاطمة أليس من البديهي وبدافع الفطرة والغريزة التي اشرنا إليه ان تنحصر عاطفته الأبوية بالحسن والحسين وأن ينصرف إليهما بالعناية والرعاية والتهذيب .

ولما كان ليس للنبي الكريم ولد تتجزأ لأجله عاطفته ويكون الجزء الأوفر من هـذه العاطفة غير أنه لم يكن له من الذرية إلا الحسنين فقد انحصرت كل عاطفته الأبوية بهما فهما ابناه حقيقة وقد عبر عن ذلك بعدة ألفاظ وعبارات منها : هما مني وأنا منهما ومنها ولداي وابناي وريحانتاي .

نشأة الحسنين :

ليست التربية موعظة كلامية يلقيها المربي على مسامع الناشيء بل التربية إشعاع روحي ينبثق من نفس المربي ويستقر في نفس المربى فبالقـدر الذي يكون عليه المربي من الأخلاق الحسنة والحميدة وحسن السيره ومـا يتسم به من الفضائل والصلاح فإن هذه الأخلاق تتفاعل مع الناشيء ويتأثر بها وينطبع عليها ويشب ويشيب وهو صورة طبق الأصل لمربيه .

فكيف من كان مربيـه سيد الأخلاق وسيد الفضائل وسيد الصلاح الذي وصفه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وهو الذي تعهد تربية الحسنين وتثقيفهما وتعليمهما وتهذيبهما فلا شك في انهما نشآ صورة صادقة لمـا اشتملت عليه صفاته من الأخلاق الرفيعة العـالية وحسن السيرة ولا عجب إذا سارا على نهجه القويم وعملا بوصاياه ونفذا بكل دقة تعاليمه ومبادئه وكان لهما من علمه وشجاعته وحلمه وصبره وجهاده في إعلاء كلمة الله ما لم يكن لأحد سوى

أبيهما أمير المؤمنين [1] .

لذلك أمر الرسول الأعظم بالتعلق بهما ونص صراحة على امامتهما بقوله «ولداي هذان إمامان قاما أو قعدا» .

فمن كان مؤمناً ايماناً صادقاً ومسلماً إسلاماً صحيحاً فعليه ان ينهج نهجهما ويدين بالولاء لهما وإن من عاداهما فقد تنكر لوصايا الرسول ﷺ وباء بغضب من الله تعالى .

(١) انهما وإن كانا طفلين في حياة الرسول إلا انه كان يلقنهما مبادىء التربية خصوصاً الحسين فإنه عايش الرسول الى ما بعد السادسة وهي سن يستقر في نفس صاحبها ما يسمع وما يشاهد .

فاطمة الزهراء

مولدها وصفاتها :

اختلف الرواة في تحديد السنة التي ولدت فيها فاطمة الزهراء غير أنهم اتفقوا على أنها الصغرى من ذرية الرسول وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنهـــا ولدت بعد النبوة بخمس سنوات كانت شبيهة برسول الله خلقاً وخلقاً ومنطقاً وهذا ما دعا الناس لأن يجهشوا بالبكاء يوم جاءت الى أبي بكر قطالب بفـدك ومشيتها مشية رسول الله وهيأتها هيئته فتذكروا في شخصها أبيها . نشأت وتربت هي والإمام علي في بيت واحد لأن الإمـــام ولد قبلها بخمس عشرة سنة وتربى في حجر ابن عمه الرسول وكانت خديجة بنت خويلد بمثابة امه تحنو عليه وترأف به فعلي وفاطمه كلاهما قد رشفا من معين تربية واحدة وفي منزل تضفي عليه الفضيلة ثوبها النقي الفضفاض .

الزواج من علي :

ان التربية الواحدة ما بين علي وفاطمة والانحدار من محتد واحد وأرومة واحدة قد جعل منهما فذّين متكافئين . وروى الشيعة ان النبي (ص) قال : « لو لم يخلق الله علياً ما كان لفاطمة كفء » .

لقد اتفق المسلمون على ان الرجل أن يتزوج بمن هي دونه في المنزلة والنسب والشرف وتضاربت الآراء في المرأة بهذا الصدد فقالوا هل المرأة ان تتزوج بمن هو دونها نسباً وشرفاً .

قالت الشافعية والحنفية والحنابلة : الكفاءة في الزواج شرط .

وقالت الإمامية والمالكية : كلا ليست بشرط .

إذاً فرواية الشيعة لحديث الرسول « لولا علي لم يكن لفاطمة كفء » ان هذا القول يتناقض مع قولهم بأن الكفاءة في الزواج ليست بشرط ويتنافى مع قوله سبحانه : « إن اكرمكم عند الله اتقاكم » ونحن نقول تفسيراً لقول الشيعة أنهم أرادوا بالكفاءة في الزواج كفاءة النسب والسعة والملك والجاه والمال . أما كفاءة علي لفاطمة فهي التساوي في الفضائل والتشابه في العظمة الخلقية .

وفاطمة سيدة نساء عصرها في جملة سيدات أهل الجنة ومن يطلع على كتابي أهل السنة كتاب الاستيعاب وكتاب المستدرك يجد رواية عن النبي أن سيدات نساء أهل الجنة : مريم بنت عمران ، ثم فاطمة بنت محمد ، ثم خديجة بنت خويلد ، ثم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

وورد في صحيح مسلم والبخاري والترمذي عن النبي أنه قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة .

ورد في كتاب «ذخائر العقبى» للطبري (السني) ص ٣٠ طبعة ١٣٥٦ هـ: إن أبا بكر خطب الى النبي فاطمة فقال له : لم ينزل القضاء بعد ، فخطبها عمر ، فأجابه بما أجاب به صاحبه ، ثم خطبها عديد من كبار قريش وكان

الجواب واحداً . وجـاء في كتاب الفضائل عن الواقدي في الجزء الثامن من الطبقات: وحين خطبها علي قال له النبي : أهلاً ومرحباً يا علي هذا جبريل يخبرني أن الله زوجك فاطمة : إذاً إن فاطمة سيدة النساء على ما رويناه من كتابي المستدرك والاستيعاب وما رويناه عنصحيح مسلم والبخاري والترمذي وإن علياً سيد الرجال والنساء بعد الرسول فقـد روى ابن عبد البر وهو يترجم عن علي في كتابه « الاستيعاب » أن النبي قال لفاطمة: إن زوجك سيداً في الدنيا والآخرة وإنـه لأول أصحابي اسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وعن النبي أنه قال لعلي: عاتبني رجال من قريش فيأمر فاطمة وقالوا: خطبناها إليك فمنعتنا وزوجت علياً ، فقلت : مـا أنا منعتكم وزوجته بل الله منعكم وزوجه .

فعلي وفاطمة كلاهما ند للآخر وكلاهما كفء لصاحبه وليست هـذه الكفاءة نسبية او خلقية فحسب بل هي كفاءة سماوية شاءتها القدرة الإلهية. فالولاء والطاعة لهما فرض على الناس جميعاً .

الجهاز المتواضع :

لو أن النبي قبـل زواج فاطمة من سادات قريش والعرب لكان جهازها الديباج المرصع بالفضة والحرير الموشى بالذهب ولكان سكناها القصور الفخمة تحيط بها الخدم والحشم ويسعى بـين يديها الخصي والجواري ولكن هذا كله متاع الحياة الدنيا الفاني وزخرفها الزائل وما خلقت فاطمة لهذا لأنها من آل محمد وقد قال ابوها : « ليست الدنيا من محمد ولا آل محمد » .

إذا ماذا كان جهازها وأين كانت سكناها ؟

سيأخذك العجب يا أخي القارىء من هذا الجهاز الذي تقبلته فاطمة عن

طيب خاطر ورضى نفس فهذا هو كما رواه ثقات الروات ودوّنـــه اكثر الكتاب الذين يتوخون الأمانة والصدق في الكتابة :

قميص ، وخمار لغطاء الرأس .

فرشان أحدهما ليف والآخر صوف ، ومخدة ليف .

وأربعة متكآت حشوها من نبات الارض .

وسرير من جريد النخل .

وجلد كبش وحصير .

وستار من صوف .

وقدح من خشب .

ورحى للطحن .

وإناء من نحاس للعجن والغسيل.

وقربتان : كبيرة وصغيرة .

ووعاء من ورق النخل مزفت .

وجرة خضراء وكوزان من خزف . ومنخل .

ورش الإمام أرض الدار برمل ناعم ، ونصب في البيت خشبة من الحائط الى الحائط لتعليق الثياب فلا خزانة ولا صندوق لثياب العرس .

هـــذا هو الجهاز الذي قدمه علي لسيدة نساء العصر فتقبلته راضية مسرورة وهذا هو الجهاز الذي قبل بـــه الرسول لابنته وهو يعلم أنه كان ينتظرها فاخر الأثاث والرياش جهازاً لو أنه قبل أن يزوجها بسادات العرب

حين خطبوها اليه لا خدم لها ولا حشم بل هي الخادم لنفسها ولزوجها تطحن بالرحى حتى تتورم كفها ويدخل عليها الرسول مرة فيراهـا وعلياً يطحنان بالرحى فيقول : أيكما أعيا ؟ — أي تعب — فيقول علي : فاطمة يا رسول فقال لها قومي يا بنية فقامت وجلس يطحن مع علي !!

أي مشهد رائع هذا من مشاهد الفقر والفاقة محمد رسول الله وعلي فخر الرجال يجلسان معاً فيجرشان ؟! ولو طلبا الغنى لكانا من أغنى أغنياء الدنيا، ولكانت سكناهما القصور الشاخة لا هـذا المسكن المتواضع الذي فرشت صحن داره بالرمل وكانت سقوف بيوته من سعف النخل .

غير ان من هذا البيت الذي يكاد يشبه الاكواخ انبثقت ضياء المدينة وشعت أنوار السعادة للبشرية .

وفي هـذا البيت المتواضع نشأ هـداة ساروا بالشعوب في دروب الفلاح والنجاح فيه .

في هـذا البيت المتواضع الذي يضم فاطمة وعلياً ينجبان أنبل وأشراف مخلوقين الحسن والحسين .

وفيه يشرف جدهما على تربيتهما وتنشئتهما وتعليمهما(١) فيصبحان قمرين نيّرين ينيران للأمة الاسلامية مسالكها المظلمة وطرقها الداكنة .

---

(١) روى البزاز الكردي : ان عبد الرحمن السلمي كان يعلم الحسن والحسين القرآن .

زهد الإمام في الدنيا

روي عن الإمام قوله : « إن إمامكم قد اكتفى من دنيـــاه بطمرية ومن طعامه بقرصية » .

وقوله : « من يشتري سيفي هـذا ، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكروب عن وجه رسول الله فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته » .

أي نفس أزهد وأعف وأنبل من هذه النفس إنها لنفس في الذروة القصوى من العظمة والسمو والرفعة .

خليفة الله في أرضـه وأمير المؤمنين تتدفق على الخزينة التي تحت إمرته ورهن تصرفه الأموال الطائلة تأتيه من العراق وفارس والحجاز واليمن ومصر يكتفي من دنياه في لباسه بطمرية وفي طعامه بقرصية ؟!

يا لله !! أمير المؤمنين الذي تدين له الرقـــام في معمورة واسعة الأرجاء كالعراق وفارس والحجـاز واليمن ومصر وكل هذه البلاد طوع أمره ورهن اشارته يبيع سيفه ليشري إزاراً ؟!

أمـير المؤمنين يلبس الخشن من الثياب ويأكل الجشيب [1] من الطعام ؟!

---

(١) الجشيب الغليظ أو بلا أدم : القاموس المحيط ج ١ ص ٤٦ .

ولو أراد ان يأخذ من بيت المال ما يستحقه وما هو جدير بمثله لعاش في سعة ويسر هو وأهله وللبس الفاخر من الثياب وأكل الشهيّ من الطعام .

فإن من يسهر على راحة الأمة ويقضي مصالحها ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله ويتكبد في سبيل ذلك المشاق والمتاعب والمصاعب ثم يستشهد في سبيل مبادئه وعقائده انه يستحق بوجه مشروع ان يقبض من بيت المال ما يجعله ثرياً يعيش في نعيم الدنيا ويتمتع بأطايبها ولكن أنىّ له ذلك وهو ليس بطالب دنيا .

طعام الامام ولباسه :

يروى أن أحد أصحاب الإمام دخل عليه فوجده يأكل من إناء فيه لبن تفوح منه رائحة الحموضه يأدم به رغيفاً يابساً تبدو فيه نشار الشعير وهو يكسره ويلقي الكسر في اللبن فقال له الإمام تقدم وأصب من طعامنا فامتنع الرجل .

وروي في مصباح الأنوار أن أمير المؤمنين اشتهى كبداً مشوياً وخبزاً ليناً فذكر ذلك لولده الحسن فصنعه له وكان صائماً فلما أراد ان يفطر قدمها إليه وما أن مد يده حتى وقف سائل على الباب فقال يا بني احملها إليه .

ترى بماذا استعاض الإمام وهو صائم عن هذه الأكلة الشهية التي آثر بها السائل ؟ لا شك أنه استعاض عنها بقرص من الشعير اليابس وكأني بهذه الآية الكريمة نزلت لتثني على الإمام هذا الايثار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] .

---

(١) الحشر : ٩ .

أما لبـاسه فقد ألحنا الى بعضه آنفاً ويروى انه كان يلبس قميصاً سابغاً الى ما دون الكعب وإزاراً الى نصف الساق ومدرعة أي ثوباً من صوف.

ويروى عنه أنه قال : « والله لقـد رقمت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقمها ، وقال لي قائل ألا تنبذها ؟! فقلت له : اغرب عني فعند الصباح يحمد القوي السرى » وقيل ان راقع المدرعة ولده الحسن. وفي رواية اخرى أنه قيل له : بدل ثوبك هذا فقال : وأي ثوب أستر منه للعورة ؟

فالإمام علي كان يأكل ليقيم أوده أو هو كما يقال : « كان يأكل ليعيش » نعم يأكل ليعيش كيما يرعى شؤون الإسلام والمسلمين ويعبد الله ويعلي كلمته .

وكان يلبس ما يستر العورة ويقي الحر ويدفع البرد لا يبتغي من اللباس زينة ولا حلية .

تقوى الامام وعبادته :

يروى عن الإمام قوله مخاطباً ربه : « مـا عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

هذه هي التقوى النقية الصافية ، وهذه هي العبادة الخالصة الصادقة لقد عرف ربه فعبده لا رهبـــة من عقاب ولا طمعاً في ثواب ولكن عبده لأنه إله يستحق العبادة وما من شك في أن علياً يخاف ربه ولكن هـذا الخوف تاجم عن معرفته بعظمة من خافه وقد قال بعض الفقهاء « إن الخوف هو العلم وصدق المشاهدة فإن أعطي العبد حقيقة العلم، وصدق اليقين سمي خائفاً.

ولنضرب بهذا الخوف أمثلة :

رأى اعرابيٌ رسول الله فاهتز من أعماقه خوفاً ، فقال له:هون عليك ،

انا ابن امرأة كانت تأكل القديد . وما أخاف الأعرابيّ من محمد إلا ما يتجلى فيه من عظمة .

ويروى عن فاطمة قالت : دخلت على أبي فمـــا استطعت أن أكلمه من هيبته وفاطمة فلذة كبد ابيها تتهيب ان تكلمه .

ويروى عن الإمام علي أنه قال : دخلت على رسول الله وكانت له هيبة وجلال فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت ان اتكلم .

فعلي وهو ربيب الرسول وعلى متانة القربى بينه وبينه وعلى ما هو عليه من الشجاعة والإقدام وما فيه من البلاغة والفصاحة يفحم أمام الرسول فما يستطيع ان يتكلم .

فالخوف هنا هو العلم بالعظمة وهذا ما تفسره الآية الكريمة « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » وورد في الحديث عن رسول الله انه كان إذا قام للصلاة تربد وجهه خوفاً من الله وكان لصدره ازيز كأزيز المرجل وفي حديث آخر: كأنه الثوب الملقى . وعن عائشة قالت كان رسول الله يحدثنـــا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة لم يعرفنا ولم نعرفه .

فمعرفة علي بالله وعلمه به كلاهما مستوحى من النبي ومنقول عنه. ولذلك كان وضعهما في الصلاة واحـــد من حيث الخشوع والخوف من الله سبحانه . فإذا صليا انقطعا عن الدنيا ومـــا فيها ومن فيها لا يريان في صلاتهما إلا وجه الله الكريم .

وإليك يا أخي القارىء هذه الشواهد على تلك الصلاة الخاصة الرهيبة :

يروى أنه أهدي الى رسول الله ناقتان سمينتان فقال لأصحابه : من يصلي ركعتين لا يهتم بشيء من أمر الدنيا، لا يحدث قلبه بفكر من أفكارها أهديه

احدى الناقتين فلم يجرأ أحد إلا الإمام فقال له : أنا يا رسول الله فقال له: قم وصل . فصلى الإمـــام وحين التشهد خطر له ان يأخـذ أحسن الناقتين فينحرها ويتصدق بها لوجه الله ، وحين انتهى الإمام من الصلاة أخبر النبي بذلك فقال له : هذا الفكر لله والآخرة لا للدنيا ونفسك، وأعطاه الناقتين، فنحرهما وأطعمها المعوزين .

وقال صاحب « نهج الحق » عن صلاة الإمام : بلغ في العبادة أنه كان يؤخذ النشاب من جسده عند الصلاة ، لانقطاع نظره عن غير الله بالكلية .

هكذا كان الإمام حين يصلي يفقد الشعور بالكون وما فيه حتى لتفقده شعوره بألم جسده . لأنه منصرف عن ذاته الى الله سبحانه وتعالى .

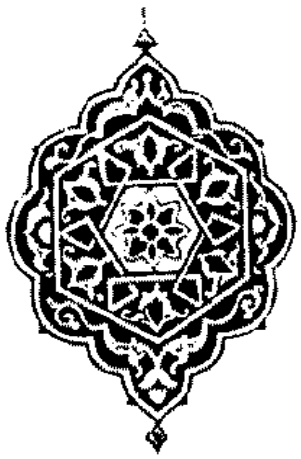

غزارة علم الإمام

روي عن الرسول أنه قال : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » .

أي صفة لغزارة العلم أعظم من هذه الصفة التي وصف بها الرسول علياً ؟ إنه واضح أن عن علي يُصدَّر العلمُ ومنه يُدخل إليه . بل إنـه واضح أنه يحيط بكل علم الرسول ، وإنه واضح أن علياً هو الذي نقل الى البشرية علم الرسول إذ عن طريقه توصلت الناس الى علم الرسول وحسبنا بهذا دليلاً على غزارة علم علي فهي من غزارة علم الرسول .

أضف الى ذلك ما دوّنه علي من العلم النافع المفيد ولو لم يكن له إلا نهج البلاغة لكفاه أن يكون بحراً من العلم لا يدرك له شاطىء .

وثمـــة للامام لون من المعرفة والعلم عدها كثير من الذي تطرقوا لصفاة الإمام في هذا العصر أنها خوارق او علم بالغيب كقوله مثلاً رواية عن حفيده جعفر الصادق : « يـــأتي على الناس زمان يسمع ويرى من في المشرق من في المغرب » وهذا إشارة واضحة الى الراديو والتلفزيون .

ليس في ما قاله شيء خارق او علم بالغيب بل هو عـــلم محض ومعرفة

صرفة ينحصران في التأمل في الانسان وإدراك كنهه وسبر غوره .

إن عصر الإمام لم يخل من المفكرين والفنانين فقد رأى بـأم عينه أناساً يخططون فيقيمون أضخم الأبنية فهم مهندسون ماهرون ، ورأى أناساً بارعين في الطب يـداوون المرضى ويكتشفون الدواء من أعشاب الأرض ونباتها . فأدرك أن الإنسان مفكر وأن هـــذا الانسان ماضٍ الى التطور والتقدم في تفكيره لأنـه رآه يتجدد فيما هو يزاوله فخرج من نتيجة تأمله في هذا الانسان بتلك النظرية العلمية المحضة « يأتي على الناس زمان يسمع ويرى من في المشرق من في المغرب » .

ولم يقتصر في تأمله الانسان على هـــذه النظرية بل وضع نظريات علمية كثيرة منها قوله مشيراً الى تقدم الانسان في فن الزراعة : « سيأكل الانسان ثمرة الصيف في الشتاء ، وتحمل الشجرة مرتـــين في السنة ، وينتج الصاع مئة صاع » .

وأشار الى المواصلات الجوية والبرية بقوله: « تكون السنة كالشهر والشهر كالاسبوع والاسبوع كاليوم ، واليوم كالساعة».

وأشار الى استغلال دور النشر والطباعة لذوي العلم والمعرفة بقوله : «من العلماء من يضع علمه عند ذوي الثروة » ، كما أن في هذا إشارة الى استغلال أصحاب الثروة لإنتاج المخترعين .

فهذا كله من الإمام نظريات علمية صحيحة . وصفها عـــن تأمل عميق للانسان وصدرت منـــه عن سداد في الرأي وسلامة في المنطق وصدق في التفكير .

حلم الإمام وصبره

انتزاع الخلافة منه :

انه ليوم تفطرت له القلوب وهلعت له الافئدة وطاشت فيه العقول يوم مضى رسول الله الى ربه فكانت الناس في وفاته بين مصدق ومكذب حتى خرج أبو بكر من عنده بعد أن ابدى ما أبداه من الحزن والأسى بالكلمات التي خاطب بها الرسول وهو مسجى خرج الى الناس وهم في هياج شديد وفي جملتهم عمر بن الخطاب فقال لهم كلمته المشهورة : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » وتلا الآية الكريمة « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فأنزل بهذه الكلمات السكينة على الناس ثم عاد الى منزل الرسول .

وكان علي وقد صهر قلبه الحزن والأسى على رحيل ابن عمه ومربيه يعمل على تجهيزه وكان في الدار العباس ذلك الرجل الذي حنكته الأيام وسبر غور الناس وعرف بخبرته انه لا بد وان يبحث المسلمون عن خليفة لرسول الله لذلك أراد ان يتعجل الأمر ويضع النصاب في موضعه ويسند الخلافة لصاحبها

الذي يستحقها فالتفت إليه على ملإ ممن حضر وقال : « امدد يدك أبايعك فيقول النـــاس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان » .

فأجابه عليّ ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

ثم انصرف الى مـــا هو بصدده من جهاز الرسول والعباس لا يجد وسيلة لإقناع ابن اخيه في قبول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه .

ولقد كان ما خشيه العباس .

فقد راحت تجتمع فرق من المسلمين مع بعضهم البعض للتـــداول في أمر الخلافة فاجتمع عمر بمسجد المدينـة مع أبي عبيدة عامر بن الجراح يشاوره ، واجتمع سعد بن عبادة بسقيفة بني ساعدة يشاور الأوس والخزرج .

وبقي آل محمـد منصرفين الى تجهيز الجثمان وفي جملتهم علي لا يخطر بباله شيء من أمر الدنيا وفيهم العباس قلقاً مشتت الفكر تتوزعه الهواجس اشفاقاً من خروج الأمر عن ورثة الرسول. وكان في جملة المجهزين أبو بكر وهو لا يدري بما يطرأ من أحداث في الخـــارج وفيما هم فيه وإذا برسول من ابن الخطاب يستدعي أبا بكر فيجيب الرسول بقوله : « أفي مثل هذه الساعة ؟ ويح ابن الخطاب ؟ إني مشتغل بجهاز الرسول » غير ان المرسل يجيبه: «إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره وقد جئتك أبلغك » ، ويخرج أبو بكر ، ويدرك العباس الغاية من هذا الخروج ويحاول ان يحدث ابن أخيه ثانية في أمر الخلافة وسرعان ما رأى أبا سفيان يدخل الدار بعد أن علم بوفاة الرسول ويتقدم شيخ بني أميه تفيض نفسه بالحزن والأسى وهو الرجل المحنك دخل وفي نفسه

ما يعتقد أنه في نفوس الناس جميعاً بأن تراث النبي سوف لا يخرج عن ذريته ولن يتجاوز داره وإن كانت في قرارة نفسه نزعة لأحقية بني عبد مناف .

وتقدم شيخ بني أمية وبجانبه العباس الى علي يدعوه قائلاً : «يا أبا الحسن هذا محمد قد مضى الى ربه وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك فإنك لها أهل » .

فيجيبه علي اجـــابة المطمئن الواثق : « يا أبا حنظلة هـذا أمر ليس يخشى عليه » .

ويطرق هذا الجواب مسامع العباس فلا يطمئن إليه .

لقد كان الإمام في جوابه هذا لأبي سفيان واثق وثوق المؤمن المخلص بأن المؤمنين لن يحيدوا عن آل بيت رسول الله ولا يتنكبون عن نهجـه ووصاياه وما دار بخلده وهو الإنسان الطيب القلب الطاهر السريرة أن ثمـة نفوساً متكالبة على الدنيـــا طامعة في السلطة والسلطان وهي لأجله تضحي بكل شيء حتى بعقائدها وإيمانها إذا تطلب الأمر ذلك .

ثم يعود عمـــه القلق على مصير الخلافة ليدعم رأي أبي سفيان فيقول : « يا ابن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف وإذا بايعتك عبدمناف لم يختلف عليك قرشي ، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحـــد في العرب » .

ولكن الإمام لم يكن انتهازياً وقد أباها أن تكون مبايعة خاصة انه يريدها أو يتوقعها ان تكون مبايعة من المؤمنين كافة خاصتهم وعامتهم فراح يجيب عمه :

« لا والله يا عم .. فإني اريد أن اصحر بهـــا وأكره ان أبايع من وراء رتاج » وترك ابو سفيان علياً في إصراره وعزمه وخرج .

واجتمع الأنصار والمهاجرون في سقيفة وبايع كل من عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح أبا بكر وتوالى بعدهما الناس للمبايعة . وجاءت الظروف الحرجة بالخلافة لابن تيم .

حصل كل هذا وجثمان الرسول ما زال مسجى لم يوار .

وكان آل الرسول وخصوصاً علي في شغل عن هـذا في تجهيز الجثمان وإن علياً كان يغمره الحزن ويعصف بنفسه الأسى وكنت تراه وكأنه فاقد اللب لا يرى من حوله ولا يعي قولاً لأحـد ولم يفق من غيبوبة أساه إلا على صوت انهيال التراب على مثوى الرسول فشاب قليلاً وكان كل ذلـك الزمن لا ينبس ببنت شفة فقد عقل الألم لسانه ولم يمكنه إلا من النطق بهـــذه الكلمات التي فيها كل ما يعبر عنه الحزن والأسى من معاني :

« ان الصبر لجميل إلا عنك يا رسول الله ، وإن الجزع لقبيح إلا عليك ، وإن المصاب بك لجليل وإنه قبلك وبعدك لجلل » .

وانصرف الى داره ليلقى هناك فاطمة وبها مثل ما به من اللوعة والأسى بل تزيد عليه في استعادتها الحزن على أمها وما كان لديه ثمة شيء يقوله لهـا وماذا يقول لها ؟! أيعزيها في ابيها وهل في مثل هذا الموقف يحمل العزاء ؟ لم يكن أبلغ من الصمت الحزين معزياً .

ورآها تغـــادر مكانها في جهد وقدماها لا يكادان يحملان جسمها ويتبعها عليّ صامتاً الى الباب من غير ان يردها رفقاً بها ومضت الى مثوى ابيها وكان مشهد يفتت الأكباد ويذيب الأنفس فقد أكبت على القبر تمسح خديها بترابه

ثم ملأت كفيها بحفنتين من ترابه الطاهر الندي رفعتها على شفتيها وعفرت به وجهها فخان كلّ من شاهدها على حالها هـذه الصبرُ والجلد وعلت الاصوات بالبكاء . وتقدم منها عليّ مترفقاً فألقت إليـه قيادها وهي تكاد تنهار وهناً وعياء ومشى بهـا عائداً الى البيت فحانت منها التفاتة الى ذلك الذي علمت انه وسّد رسول الله مقره الأخير «أنس بن مالك» فهتفت به بصوت مرتعش لا يكاد يبين فأسرع الرجل وعيناه مخضوضبتان بالدمع :

«لبيك يا بنت رسول الله» فقالت له هذه العبارة وما زادت عليها كلمة :
« كيف أمكنك يا أنس قلبك ان تسلم للأرض جثة رسول الله ؟! »

* * *

ولكن هل هدأ بال أبو بكر بعد البيعة ؟! وبال صاحبي فكرة المبايعة له ابن الجراح وابن الخطاب بعد دفن الرسول ؟!

كلا ما كان ليهدأ لهم بال وهم يعلمون ان علياً والعباس وغيرهم من آل محمد وأصحابه المقربين لم يكونوا في جمـــلة المبايعين ، وعدم مبايعة هؤلاء أمر له خطورته على خلافة شيخ بني تيم فدعاه هـذا القلق الى الاجتماع بصاحبيه ابن الخطاب وابن الجراح للتشاور وراح الثلاثة يقلّبون الأمر على وجوهـه فقال عمر بلهجته العنيفة القاسية :

« يا خليفة رسول الله (!!) ألزمهم طاعتك »

فأجاب : « فإن أبوا ؟ » وبنفس اللهجة يجيب عمر :

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء » (!!)

ولكن أبا عبيدة وهو أكثر روية من عمر يعلم أن لمثل رأي ابن الخطاب

له ما بعده من أحداث جسام فيرتأي انيؤخذ رأي المغيرة بن شعبة واستُدعي المغيرة وعرض عليه الأمر فأشار عليهم بترضية العباس ويُنهي رأيه بهـــذه العبارة :« ثم لا يضيرك بعدها من عليّ شيء أبداً » .

أبو بكر مع العباس :

ويمضي أبو بكر بصحبة عمر الى العباس وحين يجتمعان به يقول أبو بكر:

« يا أبا الفضل إن النـــاس اختاروني عليهم والياً ، وما أنفك يبلغني عن طاعنٍ يقول بخلاف قول عامة المسلمين يتخذكم لجأً ، فإما دخلتم فيما دخل فيه الناس ، أو صرفتموهم عما مالوا إليه »

ويجيبه شيخ بني هاشم بحصافة ورجاحة في العقل ، وسداد في الرأي :

« يا أبا بكر ، إنك طلبت ثم أخـــذت ، فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ، وإن كان هذا الأمر يجب الك بالمؤمنين ، فما وجب إذ كنا كارهين . وما أبعد قولك أن الناس طعنوا عليك من قولك أنهم مالوا إليك ؟! »

وكأنما عمر راح يستشيط غضباً من أجوبة العباس المقنعة وحججه الدامغة فيرد عليها بعنفه المألوف قائلاً : « إنا لم تأتكم لحاجـــة إليكم (!!) ولكن كرهنا ان يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم فانظروا لأنفسكم وعامتهم » .

وخشي أبو بكر مغبة هـــذا الجواب العنيف فراح يتلطف العباس محاولاً إغراءه قائلاً :

« يا أبا الفضل إنك سيد هـــذا البيت ، وقد جئناك ونحن نريد ان نجعل لك في أمرنا نصيباً ولمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله » .

ولكن العباس العاقل الحصيف ما كان ليحيد به عن حقوق آل البيت مثل هذا الإغراء فراح يرد على أبي بكر بهذا القول المفحم :

« أفما تريد ان تعطيناه حقك ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟! يا أبا بكر إن يكن حقك فامسكه عليك ، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك ان تحكم فيـــه ، وإن يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض ، **ولكني أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله** » .

ويجيب أبو بكر بهذا القول الواهي :

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

وهل لمثل هذا القول أبلغ من هذا الجواب من العباس :

« إني ما قلت الذي قلت أروم بـــه صرفك عما دخلت فيه ، لا والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان . يا أبا بكر **إن يك رسول الله منـا ومنكم فان رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها** » .

نستطيع ان نستخلص من كلام العبـاس في قوله : « اني ما قلت الذي قلت أروم به صرفك عما دخلت فيه ، لا والله » أن أبا بكر لم يكن يفكر في الخلافة ولا سعى من اجلها أو تآمر من اجـل الحصول عليها وقد واقته بها الصدفة كما ذكرنا فكان لزاماً عليه ان يحـافظ عليها حرصاً منه في زعمه على وحـدة الصف في المسلمين أو أن يحصل انشقاق وتفرق فيما بينهم فتسوء العاقبة .

لهذا نراه يعترف صراحة في خطبته الاولى يوم بويع بالخلافة أنه ليس بخير الناس في هـذه الولاية حيث قال : « أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن احسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني » إنه مع ذلك يتمسك

بالخلافة بكلتا يديه ويعض عليها بالنواجز ولو لم يحسن الخلافة فهو يريد حين يسيء أن يرشدوه ويقوموه بالنصيحة لا ان ينصرفوا عنه الى غيره أو الى من هو خير منه .

أبو بكر عند الامام علي :

لقد علم أبو بكر علم اليقين ان الحديث الذي دار بينه وبين العباس سيقف عليه عليٌّ مـا من ذلك بد . ومـــا دام قد يئس من اقناع العباس بالبيعة أو إرضائه ، فكان لا بد بد له من ان يعاود حمـــلة الإقناع على الإمام علي وهو إذ يقنع ويرضى فيسير على غرارة بقية آل البيت ومن والاهم من صحابة رسول الله المخلصين .

ويمضي الى دار علي يحيط به صاحباه ابن الخطاب وابن الجراح ، وحاول أبو بكر ان يقنع علي بليّن الكلام ورقيق العبارة .

ولكن أنى لصاحب الحق المشروع ان يخدعه الممسول من الكلام والليّن من القول ورأى أبو بكر علياً متمسكاً في حقه ثابتاً عليه ثبوت الطود غير أنه لم يخرج عن حلمه ولا فكر في إثارة الفتن وتأليب الناس .

فعمد ابوبكر الى طريقة الإرهاب والتخويف فقال لعلي حين رأى اصراره على عـــدم المبايعة : « ابن عم رسول الله وختنه على ابنته ، يريد ان يشق عصا المسلمين » .

ولكن العباس يسارع بالإجابة على هذا التهديد :

« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه »

وكان لا بد للإمام ان يجيب فقال بكل هدوء ورباطة جأش :

« أنا أحق بهذا الأمر منكم ، فلا أبايعكم ، وأنتم أولى بالبيعة لي »

ويجيب ابو بكر : « وهل كانت بيعتي عن غير رضا من الناس ؟ »

ويجيب علي : « ولكنكم زعمتم للانصار انكم أولى بها منهم ، إذ كان محمد منكم فأعطوكم المقادة . ولست احتج عليكم إلا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار » .

وانبرى عمر بن الخطاب يقول :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »

فرد عليه عليّ في شيء من الغضب :

« نحن أولى برسول الله حيـــاً وميتاً . يا عمر إنّا آله ، موضع سره ، ولجأ أمره ، وغيبة علمه ، وموئل حكمه ، لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً . »

ثم يعود ابن الخطاب الى شدته وعنفه فيقول :

« إنك إذن لست متروكاً حتى تبايع »

فصاح به علي : « أفتلزمني البيعة يا بن الخطاب ؟! »

وتدخل أبو بكر يلطف الجو بكل هدوء قائلاً :

« يا أبا الحسن إن الناس قد اختاروني عليهم. وإني احب لك ان تدخل فيما دخل فيه الناس »

ويشاء ابن الخطاب ان يزداد عنفاً ويحرج الموقف وعلياً فقال :

« يا خليفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك إذ بايعك الناس »

وكان لا بد ان يثير هـذا القول حفيظة علي فصاح في وجهه وهو يزأر زئير الأسد وفي نبرات صوته ما يدل على التهكم والسخرية :

« يا عمر ! احلب حلباً لك شطره ، وشد له اليوم يرده عليك غداً »

ثم التفت الى أبي بكر قائلا :

«أما والله لقد تقمصتها وإنك لتعلم ان محليمنها محل القطب من الرحى، يصدر عني السيل ، ولا يرقى إليّ الطير »

وأراد عمر ان يجيب فحال أبو بكر دون ذلـك ثم خاطب علياً متلطفاً وهو متجه نحو الباب :

« لا عليك يا أبا الحسن ، فإن لم تبايع فلا اكرهك »

وخرج يتبعه ابن الخطاب وبقي ابن الجراح عنـــد علي في محاولة يائسة لاقناعه بالبيعة بأسلوب لطيف رقيق غير الاسلوب الذي سلكه ابن الخطاب ولا عجب في محاولته هـذه وهو الذي مهد لخلافة ابي بكر وكانت له اليد الطولى في بيعته .

والتفت الى علي وهو جالس مع أهله وقال في لهجة فيها اللين وفيها الرقة:

« يا ابن عم ، انك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم بالأمور » .

ويح ابن الجراح ألمثل عليقال هذا الكلام وهو يوازن الجبال الراسيات في رجاحة عقله وسداد رأيه وغزارة علمه ورباطة جأشه وحسن تدبيره وله كل هذه المميزات وهو في سنه التي استهان بهـا ابن الجراح وقد صدق من قال :

« ومـــا الحداثة من حلمٍ بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب »

غير أن علياً لا يأبـــه لقول ابن الجراح ويرد عليه بعدم الاكتراث لقوله وفي شيء كثيرٍ من الاتزان والهدوء :

« أما السن فما أزعم لي بها على الرجل قدم » .

« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ اني أرى أبا بكر أقوى على الأمر منك » .

ولا يترك له علي مجالاً للاجابة ويجيب عنه :

« أفأنتم خير أم رسول الله » ؟

ويجيب أبو عبيدة : « بل رسول الله » .

وهنا يضع الإمام أبا عبيدة في موقف محرج فيقول :

لقـــد كان رسول الله بعث أسامة بن زيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه أنه صبي .

وماذا عسى أن يجيب ابو عبيدة وهو يعلم قصة أسامة مـع الرسول حين أمّره على جيش الشام وأسلمه الراية بيده رغم أنه كان في جملة جنوده ابو بكر وعمر وغيرهما من صحابة رسول الله وجلهم في سن الشيخوخة وأسامة غـلام لما يبلغ سنه العشرين ، ورأى بعضهم في مثل هذه القيادة لهذا الحدث الغلام غضاضة وغضاً من شأن هؤلاء الشيوخ وراحوا يطعنون في قيادته فوافاهم الرسول ﷺ يخطب فيهم في شيء كثير من الغضب قائلاً :

« أيهـــا الناس أنفذوا جيش أسامة ، وأيم الله إنـــه لمن أحب الناس إليّ بعده » .

هنا تداعت حجة أبي عبيدة الواهية الهزيلة التي جاء بها ليقصي علياً عن حقه وهدفه ويحمله على البيعة حتى أن الذي بايعه على الخلافة لم يقم للسن وزناً وأقر قيادة أسامة تحت وطأة وصية الرسول حين قامت في الناس موجة من المعارضة في شأن قيادة أسامة وهل يملك ابو بكر أن يخرج عن وصية الرسول

الصريحة في انفاذ جيش أسامة؟ وهل يستطيع ابو بكر أن يسقط من حسابه الحكمة التي توخاها الرسول في أسامة من أن السن ليست ميزاناً للكفاءة ولا قياساً للقدرة على الاضطلاع بمهام الأمور .

ويلجأ ابو عبيدة المداورة في الحديث في شيء من الرقة واللين المشفوعين بالإغراء والتمني ويقول :

« اني يا ابن عم ، إنما عنيت أنك حديث السن ؛ أنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق فيفضلك ودينك وعلمك وفهمك ونسبك وصهرك » ولكن مثل هذه المداورة وهذا التمني والإغراء ما كان لينطلي على الإمام فأجابه في حدة وغضب :

« الله الله يا معشر المهاجرين !! تخرجون سلطان محمد في العرب من داره الى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه في الناس ؟ أما والله لنحن أهل البيت أحق منكم بالأمر ، ما دام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية » .

ثم سكت قليلاً وأبو عبيدة صامت لا يجد جواباً ولا يملك خطاباً وقد صعقتهذه الحجج الدامغة وهذه الأقوال الحكيمة البليغة وأغرقه هذا الفيض المتدفق من العلم والمعرفة في الإمام علي (رض) وتابع علي حديثه قائلاً :

« وإنه والله لفينا يا أبا عبيدة !. إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله وتزدادوا من الحق بعداً » .

لم يعد بعد هذا الفيض من الحجج المتينة الصحيحة الصادقة لابن الجراح

أي مجال للحديث وقد سد الإمام في وجهه كل سبل الكلام بما أبداه له من أقوال صحيحة وآراء سديد وحجج قاطعة .

علي يرفض الخلافة :

نعم لقد رفض علي الخلافة في مثل هذه الظروف الحرجة من حداثة وفاة الرسول والناس ما بين صابىء ومرتد ومتمرد على تعاليم الاسلام ونظمه .

نعم لقد رفض علي الخلافة وأباها أن تقوم على تشتيت كلمة المسلمين وإراقة الدماء وتعرض كيان الإسلام للانهيار .

فها هو ابو سفيان يعود ثانية ليعرض عليه المبايعة بالخلافة فيجيبه علي :

« يا أبا حنظلة انك تريد أمراً لسنا من أصحابه » .

وهو يهدف بهذا القول الى العاقبة الوخيمة على الأمة الاسلامية في قيام خليفتين في وقت واحد .

ولكن أبا سفيان يأبى هذا الرفض من علي ويقول :

«مهلاً يا أبا الحسن فأنت والله» ... ولا يدع علي له مجالاً لمتابعة حديثه ، ويرده ويألم ابوسفيان لهذا الرد، ويروح الى العباس وهو يعتقد ان علياً لم يرفض المبايعة إلا بسبب وجود شيخ بني هاشم للعباس فيأتيه ويمد يده نحوه قائلاً :

« فأمدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

ويجيب العباس في حزم ودهشة :

« تبايعني » ؟!

فيقول ابو سفيان :

« نعم وإنك والله لها لأهل وأحق بميراث ابن اخيك » .

ويجيب العباس في حرقة ومرارة :

« يا أبا سفيان ، أيدفعها علي ويطلبها العباس » ؟!

موقف الزهراء من الخلافة :

انزوى علي في بيته بعد ان نفض كفه من أمر الخلافة لا عن قناعة او عجز عن المطالبة بحقه السليب بل لأنه حرص كما أسلفنا على أن لا تتفرق كلمة المسلمين . عكف في بيته على كتاب الله يقرأ آياته ويتأمل فيها ويتدبر معانيها. وكان يتردد عليه بعض صحابة رسول الله الذين لم يجدوا في ابي بكر صاحب حق في الخلافة فما ارتاحت نفوسهم إليه ولا اطمأنت قلوبهم الى خلافته مثل الزبير والمقداد وأبو ذر الغفاري .

غير ان تردد هؤلاء وأمثالهم عليه ما كان ليغير من موقف علي شيئاً بعد ما آل الأمر الى أبي بكر .

إن أبا بكر خشي من عزلة علي فراح يسعى كما أسلفنا بشتى الوسائل لحمل علي على المبايعة فكم من مرة اخترق عليه خلوته يحاول باللين مرة وبعنف ابن الخطاب مرة أخرى، او بسياسة أبي عبيدة ثالثة فما كان احد يستطيع ان يخرجه عن رأيه او يزحزحه قيد شعرة عن موقفه .

فما كان الوعد ولا الوعيد ليغريه او يلين قناته فقد ظل غاضباً على حقه السليب ولكنه غضب غلب عليه الحلم. وغلب عليه العقل وغلب عليه الايمان فكان ذلك كله حافزاً له على الهدوء والسكينة كي لا يثير فتنة في الإسلام .

غير ان ذلك لم يمنعه بعد ان تألبت عليه قريش وانتزعت منه حقه من أن يجتمع الى جماعة من الأنصار ومعه زوجه المخلصة وهي تود في اعماقها أن

تناضل من أجل حقوقها كفرد من آل البيت سلبت حقها ومن أجل زوجها المظلوم فلم تأل جهداً بمناصرته بلسانها فهي حين اجتمعت الى أولئك الأنصار الذين عاهدوا أباها على الموت ثم بايعوا فيمن بايع لأبي بكر إن هؤلاء قد استيقظ فيهم الضمير وصحا منهم خلق الوفاء فقابلوا الزهراء وهم على أشد ما يكونون من الأسف والندم قائلين :

« يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا للرجل » .

وتجيبهم في استنكار :

« أفتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره » ؟

ولكنهم لا يجدون رداً لهذا الاستنكار سوى ابداء الندامة وإظهار الأسف ويجيبون في شيء من المواربة :

« يا بنت رسول الله ، لو أن زوجك سبق الينا قبل أبي بكر لما عدلنا به » .

ويجيبهم علي :

«أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه ثم أخرج أنازع الناس سلطانه»؟!

وتردف الزهراء جواباً مؤيدة لقول علي وهي ناهضة لتنصرف عن القوم:

« ما صنع والله ابو الحسن إلا ما كان ينبغي له . وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه » .

نبل الغاية :

لقد كان بإمكان علي ومن ورائه فاطمة ان يستغل الظروف ويستغل الذين تخلفوا عن البيعة من اصحاب رسول الله ، ثم يستغل النادمين على البيعة

من الأنصار وغيرهم فيستمديهم ويؤلبهم ونرجح انه كان تميل معـــه الكفة ويتغلب على خصومه ويستعيد حقه .

خصوصاً إذا استغل اخطر مـا يمكن استغلاله فيدفع بالسيدة فاطمة الى ميدان النضال من أجل الحق السليب وهي من هي من المكانة السامية والمنزلة الرفيعة في قلوب المؤمنين وقـد رأينا من قبل كيف انها استثارت عواطف المؤمنين يوم جـــاءت تطالب أبا بكر بفدك وكيف رأوا فيها مشية ابيها ونبرات صوته .

انه والله لو خرجت مطالبة بحقوقها لما تخلف أحد من المؤمنين عن أن يلبي طلبها ويسعى في مرضاتها إكراماً لأبيها .

ولكنها أبت وأبى معها زوجها ان تقف موقف «عائشة» من التحيز لاحد الفريقين .

عود على بدء محاولة يائسة من أبي سفيان :

كانت تتوالى على علي انباء الرأي العـــام في الخارج ما بـين مستنكر للخلافة ونادم على المبايعة فلا يحرك ذلك منه ساكناً .

لقد وافاه الى داره اناس كثيرون من اولئك وهؤلاء يقدمون له العروض ويحاولون حمله على المطالبة بحقه فلم يغير موقفه ولم يشأ أن يستغل هـــذه المناسبات .

ووافاه في جملة من وافاه « خالد بن سعيد » امير رسول الله على اليمن فرآه بـين جمع من اقاربه وأصحابه وذويه فراح يوجـه اليهم جميعاً الخطاب التالي وهو يقصد به ذلك الهادىء الساكن المنطوي على نفسه دون ان يجـد فيه نفسية ثائرة غاضبة لحقها المهضوم :

قال سعد :

« يا بني عبد مناف طبتم نفساً عن امركم يليه غيركم » ؟!

كان يأمل سعد ان يجد في علي ثورة عارمة على الوضع وكان يأمل ان تثير كلمته السالفة الحمية فيه والغضب والثأر للحق المهضوم .

ولكنه لم يسمع منه غير هذا الرد الهادىء :

« يا خالد ، هذا امرنا أبت قريش ان تؤتيناه »

ويجيب سعد في شيء كثير من التعجب والإستغراب لهدوء علي وثبات جنانه :

« يا ريح قريش وهل في الناس أحد أولى بمقام محمد منك ؟ »

نعم لقد كان الحسد يتأكل كبد قريش إذ كانت النبوة في آل بني هاشم. هذه النبوة التي كانت سبباً في تضاؤل سيادتهم واضمحلال وجاهتهم واحتقار ثرائهم وتسفيه معبوداتهم وانحصرت السيادة في بني هاشم ولكنها لم تكن سيادة دنيوية بل كان حباً وإخاء بل تقديساً لمثُل وتعظيماً لعقائد وتقديراً لأخلاق غير ان كل هذا لا يدخل في حساب الوجاهة الإقطاعية الأرستقراطية التي قضى عليها دين محمد .

فكيف يفسحون الآن المجال لأن تنحصر فيهم الخلافة بعد ما زال الرسول من الدنيا هذا هو السر الذي جعل قريش يستبقون الأحداث والظروف ويستغلون انشغال آل الرسول في نكبتهم بوفاته وانصرافهم الى تجهيزه فيعقدون المؤتمرات ليعينوا شيخ بني تيم وهم يعلمون حق العلم انهم إذا تركوا هذه الفرصة تفوتهم فسوف لا يتخلى المسلمون عن آل البيت وان الخلافة سوف تكون فيهم ما من ذلك بد .

غير ان الندم على البيعة من قبـل الأنصار من جهة ووفرة الذين لم يبايعوا أبا بكر أو الذين بايعوه وهم غير مطمئنين إليه كل ذلك جعل الناس ترقب أو تفتش عن إنسان يصحح الخطأ ويعيد الأمر الى نصابه .

ويتطرق الى مسامع ابي سفيان صدى الندامة والنقمة على خلافة ابي بكر وأيقن انه قد وافته الظروف لكي يحقق الغـاية التي طالما سعى من أجلها وفاوض في شأنها علياً ولم يلق منه غير الرفض .

أما الآن فان الظروف مواتية لأن مـا طرق مسامعه قد طرق ولا شك مسامع عليّ فهو إذاً سيتقبل عرضه ما دام هذا العرض سيأتيه الى داره تلهج بـه جموعهم التي احاطت بمنزله وتدعوه ان يبرز إليهم ليبايعوه واستبق أبو سفيان الى الدار ليكرر العرض الذي سبق ان عرضه على الإمام وقال له :

« أمـا والله لئن شئت لأملأنها على أبي فضيل خيلاً ورجلاً ، ولأسدنّها عليه من أقطارها »

ويجيبه علي وعلى ثغره ابتسامة من يرضيه سماع الحق غير انه يعلم ان الناس في شغل عنه ويقول :

« يا أبا سفيان ، هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها » .

ويعجَبُ أبو سفيان لهذا الجواب ويقول :

«ماء آجن ؟! اتراث ابن عمك يا أبا الحسن تدعه نهباً ؟؟ »

ويجيب علي اجابة العاقل المتبصر العالم بعواقب الأمور :

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير أرضه »

وراح شيخ بني أمية يستمر في اغرائه ويوالي تحريضه قائلاً :

«يا عجباً ! رضيتم يا بني عبدمناف ان يغلبكم عليها أذل بيت في قريش؟ »

ويجيب علي بكل هدوء واطمئنان :

« ما رضيت بل صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا »

وهنا صرف أبو سفيان عبارة فيها الكثير من المعاني وقال :

« إذن يتحدث الناس ... »

وعرف الإمام ما دار بخلد شيخ بني أمية فبدا الغضب في وجهه وقال :

« ويح الناس ! إن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن اسكت يقولوا جزع من الموت... أما والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الموت بثدي أمه »

ثم صمت قليلاً حتى هدأ غضبه وقال بصوت هادىء فيه الإصرار والحزم:

« يا أبا حنظلة اني سدلت دونها ثوباً ، وطويت عنها كشحاً ورأيت أن الصبر على هذا أحجى » .

واخيراً بايع علي ابا بكر :

إن علياً لم يسدل ثوباً دون حقه المشروع عن قناعة أو عجز كما ألمحنا ولكنه رأى « الصبر على هذا أحجى » .

غير ان المسلمين وخصوصاً أولئك الذين يشايعون علياً ويناصرونه ويؤثرونه عن كل أحد لعلمهم بأنه مهضوم الحق مظلوم فراحوا يتكتلون ويتجمعون ويسعون في رفع هذا الحيف والغبن الذي اصاب ابن عم رسول الله . وكان من البديهي ان يكون لهؤلاء من يعارضهم ولا يرتأي رأيهم .

وأصبحت المدينة وهي مشطورة شطرين وإذا بالوحدة الاسلامية التي رجاها علي لها بتخليه تكاد تتمزق وشعر أبو بكر ومن ورائه عمر بخطورة الموقف فقررا ان يأخذا علياً بالعنف ويحملاه على البيعة مهما كلف هذا الأمر

حق ولو أدى الى قتل هذا الذي أصر على عناده خصوصاً بعد ان سمعا قصة الجموع التي ذهبت الى داره وأرادت بيعته فهما وإن عرفا أنهـا باءت بالفشل في طلبها لحرص علي على وحدة الصف غير ان هذا الانشطار الحزبي في المدينة قد اقلق الرجلين فخشيا ان تعاود تلك الجموع ثانية وتكره علياً على القبول وتخرجه من عزلته وقد اشهرت خلفه السيوف فتكون فتنة لا تحمد عاقبتها.

لهذا نرى عمراً يسير الى دار علي وفي نفسه ثورة عارمة عليه مصمماً حمله على الاذعان بأقسى الوسائل لأنه يرى في ذلك قضاء على كل فتنة ورأباً لهذا الصدع والانقسام الذي حدث في المدينة .

وها هو عمر أمام دار علي يحاول اقتحامها وأخذ اصحابها بالشدة والعنف وخلفه انصـــاره ومؤيدوه وتلوح طلعة بهية كطلعة رسول الله رأتهم وقد علمت بنواياهم فزادها منظرهم المأ وراحت الدموع تترقرق في عينها وبدا على وجهها عبوس الغاضب الثائر .

كان لمنظرها هـذا أثره العميق في نفس عمر وصحبه وتوقفوا وقد أخذهم الخشوع وهيمنت عليهم الرهبة وغضوا من أبصارهم استحياء وقد شعروا بوهن في عزائمهم حين رأوا فاطمة تتجه نحو أبيها الثاوي في قربها وتناديه بصوت حزين رقيق النبرات :

« يا أبت رسول .. يا أبت رسول الله »

وكأن هـذا الصوت قد اصعق عمر ومن معه . وراحت الزهراء تستقبل مثوى ابيها وتستنجد به وتستعديه قائلة :

«يا أبت رسول الله.. ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافه؟»

لقد نزلت كلماتها هذه من قلوب القوم منزلة بليغة فتصدعت وكادت تتفطر

وراحت العيون تنساب بالدموع الغزار وكان عمر أشدهم ألماً وأغزرهم دمعاً.

وغاد عمر الى ابي بكر ليقص عليه قصة الزهراء فبكى أبو بكر عند سماعه شكوى الزهراء وبكى معه ثانية عمر فهو وإن ابدى غلظة وعنفاً إلا أن نفسه لم تخل من رقة والتفت الى صاحبه أبي بكر يتوسل اليه قائلاً :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نترضاها فإنا قد اغضبناها » .

ويجيب ابو بكر فوراً :

« انني منطلق » .

ولو لم يطلب عمر الى ابي بكر الانطلاق الى فاطمة لطلب أبو بكر من عمر ذلك لأن أبا بكر كان يحن من زمن بعيد الى لقاء فاطمة واسترضائها لأنه يعلم مكانتها من أبيها ويعلم ان أباها ما أحب مثلها اي إنسان وهو راغب في هذه الزيارة لها لا لاسترضائها عما أحدثه عمر في نفسها ولكن يأمل في ان يمحو من نفسها ما قد يكون قد علق بها من موجدة عليه يوم منعها من حقها في ارض فدك . وهو في الوقت نفسه يحن الى لقاء علي الذي أغضبه منه منازعته الخلافة مما اوقع القطيعة بينهما هذه الفترة الطويلة والتي لم يبدر خلالها من الطرفين المتنازعين أية بادرة سوء . حتى ان الحادثة التالية ما كانت تحمل أبا بكر على الضغينة والحقد كما استنكرها عليّ أشد الاستنكار :

بينما كان أبو بكر يخطب على منبر المسجد والناس صاغون إليه وإذا بصوت رقيق ناعم يأتي من طرف المسجد يهتف بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبي »

انه الحسن وهو إذ ذاك طفل افلتت من شفتيه هذه الكلمة الحقة وجمدت

الكلمات في حلق أبي بكر وبهت الناس وراحوا يتطلعون الى ناحية الصوت ولكن أبا بكر لم يخرج عن طوره ورباطة جأشه ووقاره وأجاب الصبي وفي فمه ابتسامة وفي لهجة فيها معاني الرفق والرأفة والرقة :

« ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ، وإنه لمنبر ابيك لا منبر أبي » .

وحين علم والده بالنبأ بعث رسولاً من لدنه الى ابي بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فإنه حدث ولم نأمره »

فأجاب أبو بكر :

« اني أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

وفي هـــذا الحادث ينجلي حلم علي ونقاء سريرته وصفاء نفسه وأنه غير واجد ولا حاقد ومـا كان لمثل علي ان يتصف بالموجدة والحقد وهو لا يحيا حياته لدنيا يود ان يستمتع بهـا بل يحيا ليعبد الله وينشر دينه القويم ويعلي شأن الاسلام والمسلمين ويشيع الخير والعدالة والصلاح بينهم .

* * *

قلنا ان أبا بكر كان يحن الى لقاء علي وفاطمة فما ان أبدى عمر الرغبة في زيارتهما حتى لاقت هذه الرغبة منه قبولاً ، وانطلقا الى دار علي واستأذنا بالدخول على فاطمة فرفضت فراحا يتوسلان بعلي بأن يحمل زوجه على قبولهما في الدخول على فاطمة .

ولم يكن علي خصماً لهما ولا حمـــل لهما قط في طيات قلبه كراهية أو بغضاً ودخل على زوجـه وهما خلفه يرجوها ان تحدثهما . وحين دخلا قرآها السلام فلم تجب واقتربا وجلسا أمامها فأشاحت بوجهها عنهما وراحـا يلحان

في الرجاء بأن تستمع لهما وتحدثهما واذنت لهما اخيراً بالحديث فقال أبو بكر وهو يظن ان غضب فاطمة عليه ونقمتها منه إنما كان لحرمانه اياهـا من ميراث فدك :

« يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابـة رسول الله أحب إليّ من قرابتي وإنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مـات ابوك أني مت ولا أبقى بعده، افتراني اعرفك واعرف فضلك وشرفك وأمنعكحقك وميراثك من رسول الله ، إلا اني سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة »

إنها لأعلم الناس بهـذا الحديث وهي لم تطالب بميراث في ارض فدك بل ان الرسول اوصى لها بهـا نخلة بحضور أم سلمى وآلمها من ابي بكر ان لا يصدقها ولا يعتبر شهادة أم سلمى كافيـة في شرعة الله والشهادة لا تقبـل إلا برجلين أو رجل وامرأتين فالتفتت اليه تخاطبه وتشرك عمر في الخطاب :

« أرأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به ؟ »

فأجاباها :

« نعم .. » فقالت :

« نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضـا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد ارضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد اسخطني » .

فأجابا :

« قد سمعناه من رسول الله »

وحينئذن رفعت وجهها الى السماء وراحت تقول :

« فإني اشهد الله وملائكته أنكما اسخطتماني ومـــا أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه » .

فما كان أشد وقع هذه الكلمات على الرجلين ، حتى شعرا ان الأرض تميد بهما فخرجا من عندها وفي نفسهما حسرة ولوعة على انهما لم يستطيعا كسب رضى بنت الرسول وأغمهما ان تبقى فاطمة على مـــا هي عليه من الغضب الذي ألحقاه بها ما دام رضاها من رضى محمد وسخطها من سخطه .

ولاح في خاطر ابوبكر ان يستقيل من الحكم ويتنازل عن الخلافة ما دامت هذه الخلافة قـد جرت عليه في اهون الأحوال سخط فاطمة وسخط ابيها وراح الى الناس يطلب اليهم ان يقيلوه في رجاء وإلحاح.

غير ان النـــاس ومن خلفهم الكبار والأجلّة من الذين بايعوه أبوا عليه الإقالة وعلموا ان من وراء هـذه الإقالة أحداث جسام لا تحمد عقباها وان الناس سوف يكثر فيهم الخلاف حول خليفة جديد ممـــا يُحدث انشقاقاً في صفوف المسلمين ورأوا من الحكمة ان يكونوا أكثر تأييداً لأبي بكر من قبل وأكثر التفافاً حوله وكان علي في جملة الذين أيدوه وتقدم منه بنفس صادقة مخلصة خالية من كل شائبة نحو الرجل ومـــا كانت خصومته له في السابق طلباً للملك وحباً في الرئاسة ولكنه كان يعتقد انه اكثر كفاية من خصمه على رفع شأن الإسلام .

ان علياً تربى على يدي رسول الله وتلقى عنه جميع الفضائل لهذا فقد نشأ كاملاً لا تشوبه نقيصة ولا تلوي بنفسه شهوة من شهوات الدنيا ولا يحيد به هوى عن مثـله وعقائده ومبادئه فلا غرو إذا رأيناه في أحرج الظروف يأتي أبا بكر بنفس نقية صافية يعرض عليه نفسه وسيفه يستعملها كيف شاء وأنى

شاء في دفع مـــا يهدد الكيان الإسلامي بالانهيار والتمزيق وهو ما يزال في طور حداثته . ولقـد كان علي صريحاً لا يعرف المواربة ولا المحاباة فاستمع الى قوله هذا لأبي بكر :

« يا أبا بكر إنه لم يمنعنا من ان نبـايعك إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى ان لنـــا في هـذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا » .

فأجاب أبو بكر :

« والذي نفسي بيده يا أبا الحسن ، لقرابة رسول الله أحبّ إليّ أن أصل من قرابتي ، وأمـا الذي شجر بينكم في هـذه الأموال فأني لم آل فيها عن الخير ، ولم اترك أمراً صنعه رسول الله إلا صنعته » .

إن أبا بكر نوّه في كلامه هـذا الى ما كان من أمر فدك غير ان علياً لم يأت أبا بكر ليحاسبه فيحق فرط فيه فقد اكتفى بالعتاب وأسدل ثوباً على الماضي ثم سار الى المسجد يدفعه نبـله وإخلاصه ليعلن على الملأ نبأ زوال كل خلاف بينه وبين أبي بكر وبايعه ودعا آله ومن تخلف من أنصاره وأعوانه عن البيعة ان يبايعوه .

وخرج عليّ من عزلته لا الى الدنيا بل الى الدين إنما في رحاب أوسع في مسجد الرسول لأن هذا المسجد كان أحوج ما يكون الى مثل عليّ في غزارة علمه ووفرة فقهه خصوصاً وإن الدين ما زال جديداً والناس في حاجة الى من يحل لهم مشكلاته وأحكامه التي كانت تستعصي على أذهانهم وأفهامهم بعـد ان خلا المسجد من المعلم الأول عم هـذا الناشىء الهاشمي وساكب كل علمه وأخلاقه فيه .

شجاعة الإمام ونضاله

كان علي على جانب كبير من الشجاعة والإقدام فكان يخوض غمار الحروب بجنان ثابت وجأش رابط لا يهاب الموت ولا يخشى العدو مهما كانت كثرته ومهما بدا فيه من أشداء الرجال ومغاويره رغم حداثة سنه ولنتأمل فيه هذه الشجاعة النادرة في الحادثة التالية :

ان المعارك التي خاضتها قريش مع الرسول وباءت في جميعها بالفشل الذريع والخسران المبين والهزيمة النكراء كل ذلك قد أضرم نار الحقد والبغض لمحمد وآله وأنصاره .

فجمعت شتاتها ووحدت قواها واتحدت مع اليهود المنتشرين حول المدينة والذين كانوا في معاهدة مع الرسول فنقضوا العهد وتألبوا عليه مع خصومه وألفوا جيشاً لجباً وقصدوا المدينة وعلم الرسول (ص) بالنبأ وكان بمثابة مفاجئة له لم يكن يتوقعها ولا أعد لها عدتها بعد ان وثق بأن قريشاً لن تعود الى حربه بعد ان منيت بالفشل في جميع حروبها معه .

واجتمع الى صحابته كعادته يتشاور معهم في أمر حشود قريش وما كان عليه السلام يبرم أمراً دون مشورتهم نزولاً عند تعاليم ربه : « وشاورهم في

الأمر[1] » وخرج من مشورتهم بذلك الرأي الفارسي الحصيف يبديه « سلمان (رض) » وهو حفر الخندق .

ووصلت جموع قريش ووقفت حيرى مدهوشة أمام طريقة في الدفاع لا عهد لها به وضاقت عليها الحيلة ولم يجدها نفعاً التراشق بالنبال عن بعد وطال عليها الأمد في هـــذا الحصار وخشي القادة ان يفتر حماس المقاتلين فراحوا يحتالون لاخراج المسلمين من حصارهم الى منازلتهم فلم يفلحوا .

فحاولت فئة منهم تتصف بالجرأة والإقدام فركبت خيولها واتجهت الى الى ناحية من الخندق يسهل اجتيازها وحاولت اقتحامها ولكن عين عليّ اليقظة الساهرة على تحركات جيش العدو ما كانت تفوته هذه المحاولة الجريئة وفي سرعة البرق كان سيفه يلمع بينهم لم يثنه عنهم انهم جماعة وهو لوحده وسرعان ما لفتت جرأته هـــذه نظر أصحابه فساروا في أعقابه يدافعون معه حتى ردوا الخيول التي عبرت الخندق لتعود الى عبوره ثانية مرتدة الى صفوفها .

وكان في جملة هذه الجماعة المرتدة على أعقابها بطل من أبطال العرب ذاع صيته في الشجاعة وبرزت مكانته في البطولة والإقـــدام فشق عليه ان تنهار سمعته البطولية في حادث الانهزام هذا وهو البطل المغوار عمرو بن عبد ود المشهور .

ما كاد يستقر في صفوف جماعته حتى عـاد وهو ما زال على صهوة فرسه مقنعاً بجلبباً بالزرد والحـديد تهتز الأرض تحت قوائم فرسه وهو يتيه زهواً وافتخاراً ترمقـــه العيون من كلا الفريقين وكلٌ منهم مـــا بين معجب فيه ومشفق منه .

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

وأشرف هذا البطل الصنديد على المسلمين وراح يهتف :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ »

لم يكن نداؤه هـذا غير صوت المنية تنادي فرجفت له القلوب وهلعت النفوس وصمت دونه الآذان .

وراح عمرو يختال أمام صفوف المسلمين والرسول ﷺ ينظر اليه ويتمنى على الله ان لا يتقدم أحد من رجاله إليه .

وزاد هـذا الإحجام من المسلمين عمراً غروراً وكبرياء وتعالياً وعاد يهتف ثانية :

« ألا رجل يبارز ؟ »

وتقدم ذلك الشاب الحدث عليّ بن أبي طالب يستأذن رسول الله وقد وقرت أسماع غيره عن سماع هذا التحدي من عمرو وقال علي للرسول متوسلاً:

« أنا له يا نبي الله »

ولكن النبي كان لحبه الشديد لعلي يضن به على سيف ابن عبدود ومنعه المرة الثانية قائلاً :

« إنه عمرو اجلس » فجلس ممتثلاً أمر الرسول وبوده لو عصاه .

وعاود عمرو الهتاف ولكن في شيء كثير من التهكم اللاذع :

« يا أصحاب محمد ، أين جنتكم التي زعمتم انكم داخلوها إذا قُتلتم ؟ أفلا يريدها رجل منكم ؟ أما منكم من يقدم ؟ »

وانبرى علي يتوسل الى الرسول وقلبه يتلهف لمبارزة هذا الخصم المتحدي المرهوب الجانب ويقول للمرة الثالثة :

« أنا له يا رسول الله ، إيذن لي »

ويجيبه الرسول بنفس الجواب :

« إنه عمر ، اجلس » .

واستمر التحدي من عمرو ولا أحد جرؤ على مجابهة تحديه غير علي ولكن الرسول وحبه لعلي كان يأبى عليه ان يخلي بينه وبين صنديد العرب ومغوارها الفذ ولم ير الرسول أحداً من مشاهير أبطاله يلبي دعوة ابن عبد ود .

وما أن أعاد بن عبد ود هتافه حتى هب عليّ يتوسل الى الرسول :

« إيذن لي يا رسول الله »

ويعيد الرسول نفس الجواب الذي يفيد ثقل وزن الخصم :

« إنه عمرو »

ويجيب علي اجابة المتهاون به الغير آبه لصيته :

« وإن كان »

ولا يجد الرسول بداً من تلبية طلبه ويخلي بينه وبين صنديد العرب فيهرع له علي ونفسه مليئة بالعزة الإسلامية فياضة بالشجاعة والإقدام ويرى عمرو المدل بصولته المعتز ببطولته أمام هذا الحدث فيستهين به وتأبى عليه سمعته البطولية ان ينازله وينظر إليه بعين ملؤها الإزدراء والإحتقار ولا يرفع اليه سيفه .

ويقف علي أمامه وقفة الند للند في رباطة جأش وثبات جنان لا يأبه لهذا الغرور الذي ملأ كيان ابن عبد ود ويلبث منتظراً من هذا الفارس المدجج بالزد والحديد ان يبادره القتال ويعجب عمرو من جرأة هذا الغلام التي دفعته الى نزاله دون فرسان المسلمين فيقبل عليه يسأله :

« من أنت ؟ »

فيجيبه في اقتضاب :

« علي »

ويستوضحه عمرو :

« من عبد مناف ؟ » ويجيب علي :

« ابن أبي طالب »

وتأخذ الفارسَ الشفقةُ فيقول :

« ابن أخي ! قد كان أبوك لي صديقاً »

غير ان علياً لا يدع لمثل هـــذه العواطف سبيلاً الى نفسه بل يجيب في جد وحزم :

« يا عمرو »

ويعود عمرو الى اللهجة اللينة التي رفضها عليّ جملة وتفصيلاً ويقول :

« أي ابن أخي »

ويقول علي في لهجة الواثق الجاد :

« انك كنت تعاهد قومك ألاّ يدعوك رجـل من قريش الى خلال ثلاث إلا اجبته الى واحدة »

فيقول عمرو :

« نعم هذا عهدي »

فيجيب علي :

« فإني ادعوك الى الاسلام »

فيضحك الرجل ويقول :

« وأترك دين آبائي ؟ دع هذا عنك »

ويجيب علي ايضاً اجابة الحازم الواثق من نفسه :

« أو أكف يدي عنك فلا أقتلك وترجع »

فملك عمرو غضبه وعجب لجرأة هـذا الغلام يهدده بالقتل ويخوفه نفسه فقال وهو يظهر الأناة :

« تكف عني وارجع ؟! إذن تتحدث العرب بفراري »

فقال علي :

« فإني ادعوك الى النزال »

غير ان عمراً اصطنع الصبر وأظهر الشفقة وعلم بالفارق الكبير بينه وبين قرنه ولا يرى لنفسه شرفاً في قتاله فقال في نبرة تتجلى فيها الشفقة :

« ولم يا ابن أخي ؟ غـيرك من أعمامك من هو أسن منك وإني أكره ان اهريق دمك »

فأجاب علي في جرأة وشجاعة وحزم :

« ولكني والله لا أكره ان اهريق دمك »

وهنا ثارت ثورة الغضب في نفس عمرو من هذا الغلام الساخر به المستهين بشأنه فاستل سيفه وهوى به على رأس علي وسرعان ما استقبل عليّ الضربة بدرقته حتى قدّت ونفذ منها الحد الى رأسه فشجه غير انه كان محتفظاً برباطة جاشه ثابتاً لا يتطرق إليـه الخوف أو الجبن وحاد عن ضربات عمرو مرات عديدة ونجا منها ثم كر عليه بحسامه فأصاب من رقبتـه مقتلاً فخر أمامه صريعاً كالثور .

وكان من شاهد هذه المبارزة لا يشك في ان علياً سيكون آخر ضحية في جملة الضحايا التي اودى بحياتها ابن عبـد ود ولكن الله أعانه فغير من شكهم واعتقادهم وما كاد ينجلي الغبار حتى رأوا عمراً صريعاً بين يدي عليّ وسمعوا علياً يهلل ويكبر .

لقد كان في قتـل علي لعمرو بن عبـد ود أثره البعيد في دعم الإسلام والمسلمين فهي من جهة اعطت المسلمين معنوية كبيرة تفيد ان المسلم لا يغلب ولا يقهر وان من العسير بعد اليوم اشعال نار الحرب ضد الإسلام أو حمـل العداوة للمسلمين .

ومن جهة ثانية فقد اضعفت معنوية قريش ولم يعـد في نفوسهم بارقة من أمل في محاربة محمـد وصحبه وكيف يتسنى لهم ذلك وهذا بطل من صناديد أبطال العرب يخندله غلام بضربة سيف ويرميه صريعاً يتخبط بدمه .

فإن مـا أبداه عليّ من الشجاعة والإقدام في قتل ابن عبد ود قد أشاع الخوف والجبن في نفوس جميع العرب ممن هم لم يدخلوا في دين الله ولا أظلتهم راية الإسلام .

وفاة الزهراء :

إن الارزاء التي ألمت بعلي والمصائب التي نزلت بساحته ما كانت لتوهن من عزمه أو توهي قواه او تعزف به عن خوض المعارك ومجابهة الأعداء رابط الجأش ثابت الجنان وقد رأينـاه في رزئه العظيم ومصابه الأليم بفقد الرسول كيف انه لم يخنـه صبره وجلده ولم يخرجه عن اناته وحلـه وتفكيره وتابع جهاده ووقف في وجه أخصامه وقفة الند الجريء المقدام .

فها هي فاطمة على مقربة منه يجسمها الواهي الهزيل تحاول ان تنهض فلا تقدر

على الحراك وتلتفت الى علي فلا تشكو له هزالها وضعفها وألمها حرصاً منها على نفسه الرقيقة الرحيمة ان تتألم لأجلها وتظهر له ابتسامة يفهم منها انها في حاجة اليه فيسارع الى قربها وتمد اليه وتربت على منكبه وتهمس: «صدق رسول الله» .

انها تعني قول ابيها لها وقد عاد من آخر صلاة له في المسجد معصوب الرأس حائل اللون :

« إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة وإنه عارضني هذا العام مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلي ... إنك أول أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلف أنا لك ، ألا ترضين ان تكوني سيدة نساء هذه الأمة ؟ »

ويصمت علي ازاء هذا الهاجس الصادق من فاطمة في قولها « صدق رسول الله » وعلم أنها لاحقة بأبيها كما كان انباأها وها هو يصدق نباأه .

ويقف علي أمام الفراش يرمقه بعينين غائمتين والى جانبيه الحسن والحسين فترقرق في مآقيها الدموع ولكنها يحبسانها إشفاقاً على أمهما ان تراهما باكيين فيشتد بها الحزن .

ويهول زينب الصغيرة هذا السكون والوجوم من أبيها وأخويها فلا تدرك له معنى وترى أمها مسجاة على فراشها لا تنهض ولا تبدي حراكاً وكأنما قلبها راح يشعر ان الموقف خطير فادح فترتمي على فراش امها وتدفن رأسها في صدرها وتروح تبكي بكاءً مريراً لا تدري له سبباً .

وتبدو على وجه فاطمة سحابة من الكآبة والحزن رثاء للطفلة وأخويها ويجثو كل من الحسن والحسين بجانبها ويتناول كل منهما يداً من يديها وينهالان عليها لثماً وتقبيلاً وتخاطب فاطمة علياً بعد ان ثابت الى نفسها قليلاً قائلة :

« هل انت صانع ما آمرك به ؟ » ويجيبها علي : « نعم »

فتقول فاطمة :

« فإني انشدك الله ألا يصليا على جنازتي ولا يقوما على قبري » .

وتنحدر الدموع من عيني علي ويشيح بوجهه عنها لكي لا ترى الدمع في عينيه ، وما كانت لتبكي الأهوال والأرزاء علياً مهما اشتدت وقست لولا علم أنه سيفقد أوفى زوجة كان يتنسم فيها طيب رسول الله وكانت عزاءه الوحيد من بعده خصوصاً وإنها تفارقه وهي في ريعان الصبا وميعة الشباب .

ولقد زاد في ألمه ان يراها تغادر دنياها الى ربها وهي ما تزال غاضبة على أبي بكر وعمر ، وكانا قد جاءا يعودان فاطمة فأبت ان يدخلا عليها ويلح عليها زوجها في الرجاء بأن تتخلى عن رفضها زيارة الرجلين وأذعنت أخيراً لرجائه على مضض .

ودخلا عليها وسلما فأشاحت بوجهها عنهما وتحدثا اليها فلم تصغ الى حديثهما ولم تكترث بهما وخرجا ولم يظفرا برضاها وهاهي تأخذ على زوجها عهداً ان يمنع الرجلين ان يصليا على جثمانها وشعرت فاطمة بلحظاتها الأخيرة وكانت الى جانبها سلمى زوج أبي رافع مولى الرسول والتفتت إليها وهي تبتسم فأدخلت هذه الابتسامة السرور على قلب سلمى وهي ترجو من ورائها ان تكون قد عاودتها صحتها بعض الشيء غير أنها هتفت بها قائلة :

« يا أمه » وتسرع سلمى بالإجابة :

« لبيك يا حبيبة رسول الله »

وتقول فاطمة :

« اسكبي لي غسلاً يا أمه »

فنهضت سلمى لتوها فأتت لها بما طلبت من ماء ، فاغتسلت به كعادتها ابان عافيتها ثم هتفت بسلمى قائلة :

« اجعلي فراشي وسط الغرفة »

صعقت سلمى من هذا الطلب وتفشت عيناها وعصف الألم بنفسها لأن مثل هذا الطلب لا يكون إلا لمن فارق الحياة ونهضت نحو فاطمة تضمها الى صدرها وتذرف الدمع الغزير من غير ان تنبس ببنت شفة ، فرقت لها فاطمة وقابلت حنانها هذا بابتسامة وعادت تطلب إليها :

« اجعلي فراشي وسط البيت »

اذعنت لها سلمى والدموع تنساب من عينيها غزاراً ونهضت فاطمة متعاملة على جسمها الواهي الهزيل وبمساعدة أم سلمى واستلقت على فراشها وهي تستقبل القبلة والتفتت الى أم سلمى قائلة :

« يا أمه ، إني مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لي كتفاً » . وأخذت سلمى شبه غيبوبة وذهلت عن نفسها ولا تملك أمام هذه الحبيبة الى نفسها غير هذه الدموع تذرفها غزيرة مدرارة .

شخصت فاطمة ببصرها الى السماء ولفظت آخر أنفاسها ولحقت بربها وهي في نضرة الورود وعمر الزهور .

* * *

وفي هدأة من الليل وقد لف الكون سكون رهيب وليس غير النجوم ترنو بعيون ذابلة الى هذا الذي وقف في ناحية من البقيع يتأمل سلوته في حياته وعزاءه في دنياه والأسى يعصف بنفسه والألم يكاد يذيب كبده وتنبع الحسرة من فؤاده تصوغ هذه العبرات المريرة :

« السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن مصيبتك صبري ، ووقّ عنها تجلدي ، إلا ان لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، ولقد وسدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرك نفسك ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد ، الى ان يختار الله لي دارك التي انت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل بك العهد ، ولم يخل منك الذكر .

والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم ، فإن انصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

بمثل هذا التأبين – إذا صح التعبير – أودع عليّ كل ما له من أنس في حياته وما يرجوه فيها من تأسي وسلوة ورجاء ، فلقد كانت نعم الرفيق المخلص على درب هذه الحياة الوعر الشائك ونعم الأنيس يستغني به عن كل صديق وأليف وجليس ، ونعم المشير يأخذ رأيه إذا حزب عليه أمر أو تعقدت له مشكلة . ونعم الراوي الصادق يأخذ عنه ما فاته من أحاديث الرسول وأقواله .

ان فقده لفاطمة وثرى ابيها ما يزال رطباً لرزء تتضاعف فيه الآلام والأحزان ولو أنه ألمّ بغير علي لأودى برشده وأخرجه عن طوره وتخلى عن وقاره وهام على وجه في هذه الدنيا لا يقر له فيها قرار ولا يشده اليها مكان معين معروف .

ولكن علياً له من إيمانه العميق بالله وعقيدته الراسخة بقضائه وقدره ما يجعله صبوراً جلداً امام الارزاء والنكبات والمصائب لا يقابلها إلا بما أمر به الله سبحانه :

« ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالو : إنالله وإنا إليه راجعون »[1] .

ومن أولى من علي بتنفيذ تعاليم آيات كتاب الله ؟

(١) البقرة ١٥٥ ، ١٥٦ .

مصرع عثمان(١)

لقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يقبض بيـــد من حديد على زمام الملك فهو أبداً يقظ على مصـالح الرعية ساهر على تصرفات الولاة لا تفوته صغيرة ولا كبيرة في جميع اقطار الدولة الاسلامية الواسعة المترامية الاطراف .

وكان في عهده قـــلة ممن لم يرقهم حكم عمر بل ولا حكم الإسلام في بلادهم المفتوحة فهم وإن كانوا قدتقبلوا الإسلام ديناً إلا أنهم لم يتقبلوه حاكماً سياسياً يقضي على قومياتهم وهذه الفئة من الوجاهة والسيادة التي لا ترضى عن الحكم الذاتي بديلاً وإن كانوا رضوا بالإسلام ديناً .

وقضى عمر نحبه بخنجر أبي لؤلؤة ضحية لهـــذه النعرة الوطنية وذلك التعصب القومي .

وحين تراخت تلك اليـد الحديدية عن زمام الحكم قبضت عليه يد هزيلة هي يد عثمان بن عفان الطيب القلب اللين العريكة .

لقد ظهرت حاضرة الإسلام في عهد عثمان في مظهر رائع من الترف والبذخ وراح كبار رجال الاسلام فيها ينفقوا عن سعة ويحيون حيـــاة ناعمة رخية

---

(١) نذكر في هذا البحث بشيء من التفصيل جميع الأحداث التي كانت سبباً في مصرع عثمان، وكيف وقف منها جميعاً علي بن ابي طـالب موقفاً شريفاً نبيلاً يدافع عن الخليفة . وقد عمدنا الى ذلك دحضاً لموقف عائشة من علي باتهامها له بالتحريض على قتله .

لأنهم راحوا يثمرون أموالهم أضعافاً من جهة ومن جهة اخرى بسط عثمان كفه بالعطاء خصوصاً اهله وذويه ورجال بطانته .

أين يثرب الآن منها ابان الرسول ﷺ يوم بدت الإشتراكية فيها بأسمى معانيها فما من أحد من أهلها الأصليين «الأنصار» إلا وعامل المهاجرين معاملة الأخ والابن عملاً بقول الرسول الكريم :

« اخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه » .

أما اليوم فإن اليسار في أهل المدينة قد أنساهم هذه المثل الإنسانية في الدعوة الاسلامية وجعلهم يشيحون بوجوههم عن الفقراء والمعوزين وهذا ما دعا أبو ذر الغفاري حين قدم المدينة بعد عهد طويل ان يستنكر فيها هذا البذخ والترف وان يصرخ صيحة هائلة في وجوه أهل الثراء :

« وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بكاوٍ من نار » .

ان عثمان قد تمادى في البذخ والعطاء وتطرف ذلك غاية التطرف . ونحن لا ننكر ان عثمان كان ثرياً من قبل وكان ذا ترف وسخاء ولكنه الآن وقد اصبح خليفة فقد وجب عليه ان يعتدل لأنه قدوة للمسلمين ولأنه اصبح موضع نقد وشك في كل ما يفعله او يأتيه .

ولأن كان الرسول قد أعطى بعض سادة قريش وفيهم ابو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد ما غنمه في حنين وقد وجدت الأنصار عطاءه هذا فأتى اليهم يعاتبهم بقوله :

«أوجدتم يا معشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟»

مروان بن الحكم علة فساد الحكم في عهد عثمان :

كان مروان بن الحكم هو المعول الهدام في صرح الخلافة العثمانية بل كان في الحقيقة السيف الذي أهدر دمه .

لقد كان هذا الثعلب المراوغ مروان بن الحكم ابن الذي افحش بالقول في حق رسول الله ولم يُغفر له فحشه حتى بعد اسلامه ونفاه الرسول الى الطائف لا يبرحها بأمره إنه الحكم بن أبي العاص عم عثمان .

وظل بمنفاه الى عهد ابي بكر حيث جاءه عثمان يشفع له فأبى ولما ولي عمر الخلافة أتاه عثمان راجياً يشفع للحكم فنهره قائلا :

« يخرجه رسول الله وتأمرني ان أرده ؟ إياك يا بن عفان ان تعاودني فيه بعد اليوم » .

ولكنه ما كاد يملك زمام الحكم حتى ردّ الى المدينة طريد رسول الله وأكرمه ومنحه مائة الف .

لم يقتصر هذا الإغداق بالمال على طريد رسول الله بل شمل جميع اقاربه وذويه مما جعل الناس تتناوله بألسنة حداد وكم عاتبه صحبه ولاموه على ذلك فما أجدى العتب ولا اللوم حتى ان علياً اتى اليه ومعه جماعة من صحبه يعاتبوه وقد سمعوا انه وهب احد اقاربه مائة الف فأجابهم :

« إن له قرابة ورحماً »

فأنكروا عليه حجته الواهية بقولهم :

« فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ » فأجاب :

« إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتها ، وأنا احتسب في إعطاء قرابتي » .

فانصرفوا عنه غاضبين وهم يرددون :

« فهديها والله أحب الينا من هديك » .

مروان هو صهرُ الخليفة :

كان على عثمان ان يحرص على إزالة الفوارق بين المسلمين وان يشيع تكافؤ الفرص على حد التعبير الحديث وان لا يكون ثمة فارق بين قريب أو بعيد في الحقوق والواجبات الشرعية .

ولكن عثمان غلبت عليه عاطفة القربى فراح يؤثر أقاربه بكل خير ونفع ناسياً او متناسياً ذوي الكفاءات أو المحتاجين والمعوزين من المسلمين .

وقد جعل من مروان بن الحكم مستشاره الخاص وصاحب رأيه عنه يصدر ومنه يبدي ويعيد ، لقد استغل مروان طيب قلب الشيخ وسلامة طويته فراح يسيره كيف يشاء وتشاء له اهوائه وغاياته ومآربه .

كان مروان في بداية التفافه حول عثمان يعمل بالخفاء ويدبر الأمور في السر ويدفع الخليفة الى تنفيذها ولكنه بدأ يتداخل في الأمور بشكل علني واضح حين زف عثمان إليه ابنته وأصبح صهره وبذلك تلاشت بقية من هيبة ووقار في نفوس الشعب للخليفة .

ولقد كان عثمان مفتوناً بمروان ايما افتتان حتى أنه منحه يوم عرسه مائتي الف غير ما كان قد أقطعه اياه من ملك .

وجاء عثمان زيد بن أرقم خازنه على بيت المال والدموع تنهال من مقلتيه يطلب اليه ان يقيله .

استغرب عثمان كل الاستغراب من بكاء زيد وتوسله في الإقالة لأنه لم يدرك لذلك سبباً معقولاً وحين استوضحه عن السبب ازداد عثمان عجباً وقال له :

« أتبكي يا ابن أرقم ان وصلت رحمي ؟ »

فأجابه خازن بيت المال بصراحة المؤمن الحريص على مال المسلمين ان يهدر:

« لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هـذا المال عوضاً عما كنت انفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ... والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً »

فغضب عثمان من جواب زيد غضباً شديداً وصاح به في حنق :

« الق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك »

وهكذا كان نصيب هـذا الأمين على مال المسلمين ان أقصي عن عمله مغضوباً عليه .

على أن هـذه الحادثة لم تكن الاولى ولا الاخيرة في بذخ عثمان وتبديده أموال المسلمين فقدسبق ان أعطى أباه الحكم مائة الف وعاتبه في ذلك علي وصحبه كما مر معنا ومائة الف ثانية وزعت على بني عثمان ومائة الف ثالثة على بني أمية وآل ابي سفيان وغيرها كثير من الألوف الى غيرهم الكثر من الأقارب وذوي الرحم .

فمن ذا يسمع بهذه الألوف الطائلة تهدر من بيت مال المسلمين وتوزع على الأهل والأقارب ويبقى في قلبه ذرة من احترام لهذا الخليفة الشيخ ؟

بل من ذا الذي يسمع بتبديد مال المسلمين ولا يمتلىء قلبه حقداً وبغضاً ونقمة على الخليفة الشيخ ؟

ولم يكتف بتوزيع الأموال على أقربائه بل وزعهم في جميع انحاء المعمورة

الإسلامية ولاةً وحكاماً يترفون ويبذخون ، ويعبثون ويلهون والشعب في غمرة من التعاسة والظلم فلا تصل الى مسامعه شكوى من هذا الشعب المتألم لأن هؤلاء الأقارب قد وقفوا سداً منيعاً بينه وبين شعبه خصوصاً منهم ابن طريد رسول الله مروان ابن الحكم الذي تقمص شخص الخليفة فراح يصدر الأوامر ويدير أمور الملك وفق أغراضه وهواه .

وكان الثعلب ساهراً على الفئة الصالحة من الامة لا يدعها تتحرك ولا يفسح لها مجالاً لنصح او ارشاد ويسد في وجهها كل سبيل تريد ان تطرقه للإصلاح او تقويم الاعوجاج او معالجة الاخطاء

فهو يرد أبا ذر الى الشام لأنه استنكر البذخ والترف والإسراف ثم نفاه الى مكان سحيق ، واستنكرت الصحابة الاوضاع على لسان عمار بن ياسر فلم يلق إلا الغضب والعنف والايذاء .

وتصل بمروان الوقاحة بأن يجترىء على ابن عم رسول الله علي ابن ابي طالب ويحاول منعه عن وداع أبي ذر حين نفيه من المدينة ومغادرته لها فيقف في طريقه قائلاً :

« يا علي : إن أمير المؤمنين قد نهى الناس ان يصحبوا أبا ذر في مسيره أو يشيعوه فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك »

وما كان لمثل علي ان يخشى هذا الثعلب أو يأبه لتهديده أو وعيده ولو كانا حقاً صادرين عن الخليفة بالذات وكان جوابه له ان رفع سوطاً كان في يده ويضرب به وجه الراحلة التي كان يركبها وقد سد بها في وجهه الطريق وقال له :

« تنح ، نحاك الله الى النار » .

ودخل عمار بن ياسر على عثمان برسالة أجمع عليها صحابة رسول الله فيها ذكر اخطائه وإصلاح ما أفسده فقال له الخليفة في استياء وغضب :

« انت كتبت هذا ؟ »

فيجيب هذا الصحابي الورع بدون خوف او وجل :

« نعم »

فيسأل عثمان :

« ومن كان معك ؟ » فيجيب :

« نفر تفرقوا فرَقاً منك » . ويعود عثمان للسؤال :

« فمن هم ؟ » فيجيب عمار :

« لا أخبرك بهم » فيقول عثمان :

« فلم اجترأت عليَّ من بينهم ؟ »

وهنا وجد مروان الفرصة سانحة للإيقاع بهذا الصحابي الجليل .

ويلتفت مروان الى الخليفة قائلاً :

« يا أمير المؤمنين ، إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه »

وسرعان ما أقره عثمان على رأيه فحمل عصاه وانهال بها ضرباً على عمار وساعده في ضربه اقاربه ومن حضر مجلسه من الاشرار المنافقين من بني أمية ففتقوا بطنه والقوه في الشارع وهو بين الحياة والموت وحمله بعض المارة الى بيته .

وهكذا أممن عثمان بالتنكيل والتعذيب والتشريد . ولم يكن ذلك صفة

أصيلة فيه ولكن هذه الحاشية الفاسدة الشريرة التي تلتف حوله ويركن اليها ويعمل بمشورتها ورأيها قد جعلت منه إنساناً شديداً قاسياً بطاشاً . وإن موقفه من ابن مسعود وقد ندم على فعلته معه ترينا صورة صادقة لنفس عثمان الأصلية وفطرته الطيبة . فقد ذهب لعيادته في بيته وحين دخل عليه ورأى شبح الموت يحوم حوله أوجعه منظره وأسف على فعلته وكادت نفسه تذوب عليه حسرة وسأله يواسيه :

« يا أبا عبد الرحمن ، ما تشتكي ؟ »

قال ابن مسعود وعيناه شاخصان الى السماء :

« ذنوبي »

يا لله !! لهـــذا الصحابي الجليل انه لا يفكر في من أساء اليه ولا فيمن سبب له الوفاة لا يفكر إلا في الله فهو يخشى ان يكون قد أساء الى ربه فلا يتمنى غير المغفرة من الله لذنوبه .

ويسأله عثمان :

« فما تشتهي ؟ » . فيجيب :

« رحمة ربي »

ويود عثمان ان يحسن اليه بأية وسيلة عساه يسترضيه فيسأله :

« ألا أدعو لك طبيباً ؟ »

فيجيبه ابن مسعود في تهكم وسخرية :

« الطبيب أمرضني »

ونفذت كلمته هـذه كالسهم في قلب عثمان وحزّ في نفسه ان يتجنى عليه وراح في محاولة يائسة ان يغريه لعله يظفر برضاه فقال له :

« أفلا آمر لك بعطائك ؟ »

فرشقه ابن مسعود بنظرة ازدراء واستنكار وقال :

« منعتنيه وأنا محتاج اليه وتعطينيه وأنا مستغن عنه ؟ » . فيقول عثمان :

« يكون لولدك » . فيجيب ابن مسعود :

« رزقهم على الله » .

ويغادره الخليفة وقد يئس من استجداء رضاه ويقول وهو خارج :

« فاستغفر لي يا أبا عبد الرحمن »

حتى هذه أباها عليه ابن مسعود لشدة تأثره وألمه منه وأجابه :

« أسأل الله ان يأخذ لي منك حقي »

عثمان وعلي :

ان اللطمة التي وجهها عليٌّ لمروان يوم تشييع أبي ذر كانت سبباً في القطيعة بينه وبين الخليفة إذ راح مروان ينفث سمومه في نفس الخليفة يؤلبه عليه ويلفق له عن لسان عليّ أحاديث وأقاويل يفهم منها الخليفة ان علياً يبغي فساداً بين المسلمين ويؤلبهم عليه حتى أوغر صدر الخليفة على علي فيهدد ويتوعد .

وينتشر نبأ غضبة الخليفة التي أثارها مروان على علي بين الناس فيأتيه جماعة منهم ويقولون : « إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر »

فيجيبهم اجابة فيها كل معاني التهكم وعدم المبالاة :

« غضب الخيل على اللجم »

وفي الحق لم تكن غضبة عثمان حرصاً منه على أوامر رفض عليٌّ تنفيذها بل كان ايضاً حريصاً على كرامة مروان ان يهدرها علي فاستقدمه اليه يستجوبه عما حدث بينه وبينه، وحين حضر سأله عثمان :

« ما حملك على مـــا صنعت بمروان ، واجترأت عليّ ، ورددت رسولي وأمري ؟ »

فأجاب علي موضحاً :

«أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم ارده»

فقال عثمان :

« أولم يبلغك أنني نهيت الناس عن ابي ذر وعن تشييعه ؟ »

فأجابه علي وهو الذي لا يعرف له طاعة لغير الله وإذا كانت لحاكم وجبت طاعته فلتكن أوامر في حـــدود شريعة الله وسنة رسوله وإلا « فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وما كان لعلي ان يجيبه على سؤاله ذاك إلا بهـــذا الصدد إذ قال :

« أو كل مـــا امرتنا به من شيء يرى طاعة الله والحق في خلافه ، اتبعنا فيه امرك ؟ بالله لا نفعل »

وما كان لعثمان ان يستطيع إقامة الحجة على علي وهو حجة الحجج وبحر العلم فأراد ان يسدل الستار على هذه الناحية فقال لعلي :

« فأقد مروان » فيجيب علي :

« وما أقيده ؟ »

فيقول عثمان :

« ضربت بين اذني راحلته »

ويقاطعه علي وهو يعلم الى أين يريد الخليفة ان يسترسل بحديثه:

« أما راحلتي فهي تلك فإن أراد ان يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بمـــا لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً »

ومثل علي لا يوارب ولا يداهن ولا يعرف غير هذه اللهجة من الصراحة وقول الحق كما أرادها رداً جريئاً حاسماً على ما سمع عن لسان عثمان من أنـه سيعطي مروان حقه من علي وينصره عليه .

ويغضب عثمان لهذا الرد العنيف من علي فصاح به مسفراً عن غله لعلي :

« ولم لا يشتمك إذا شتمته ؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه »

ويح عثمان !! أي مفاضلة هذه التي شاءها بين علي ومروان وحقيق بعلي ان لا يرد على هـــذا التفاضل السخيف الذي يعلم الثقلان الفارق الكبير بين هذا وذاك ولكن اجاب إجابة غضب واستنكار لكي لا يقال ان عثمان أفحم علياً من جهة أو أن علياً عجز عن الجواب من جهة اخرى ، فأجابه :

« ألي تقول هذا القول ، وبمروان تعدلني ؟! فأنا والله أفضل منك وابي أفضل من ابيك ، وامي افضل من امك . وهـذه نبلي قد نثلتها فهلّم فأقبل بنبلك » .

وتأزم الموقف بينهما وكاد يؤدي الى نتيجة لا تؤمن لهـا عقبى لولا ان قام الحاضرون بينهما بالإصلاح ، ولكن هذا الإصلاح ما كان لينتزع الحقد من صدر عثمان او ليطفىء جذوة الموجودة فيه على علي .

وراح عثمان يحصي على علي انفاسه ويتقصى خطواته ويرقب تحركاته في غدواته ورواحاته وراح الشك يملأ منه نفسه وأساء الظن فيه الى أبعد حد .

وفد الكوفة على عثمان للتظلم :

ان عثمان قد استعمل أقاربة ولاة على الأمصار وهم علىعلم بلين عثمان وحبه لهم وعطفه عليهم فهم لا يخشون منه عقاباً ولا يتهيبون حساباً فأرسلوا الحبل على الغارب في ولايتهم وراحوا يبذخون ويترفون ، ويلهون ويعبثون .

وإن بعضاً منهم من انحرف عن تعاليم الإسلام وحاد عن مبادىء الشريعة وحكم بغير ما أمر الله به ورسوله وإن بعضاً قد انغمس في الرذائل والمفاسد وراح يحيا حياة الفسق والفجور ويعاقر الخمور .

وهذا هو وفد الكوفة أتى يعبر عن سخط أهـل الكوفة واستيائهم من « الوليد بن عقبة » أخي عثمان لأمه الذي فسق وشرب الخمر بدار الولاية التي خصصت للبحث في أمور المسلمين والنظر فيقضايا الرعية . ويخرج الى المسجد في الصباح الباكر وقد لعبت الخمرة برأسه فيصلي الصبح بالناس أربع ركعات وكاد يزيد ، وحين أشعره المؤتمون به بذلك التفت إليهم وقال: هل أزيدكم ؟

وقد نظم هذا الحادث الحطيئة من بعد شعراً تتندر السمار في انديتهم به:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم : ... « أأزيدكم ؟ » ثملا وما يدري
ليزيدهم أخرى .. ولو قبلوا ... منـــه لقادهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلو عنانك لم تزل تجري

وهكذا راح من أول يوم وطأ فيـه ارض الكوفة يجمع اليه أهل المجون والفسق ليعيش عيش الخلاعة يقضي الليالي في معاقرة الخمرة وملازمة الشهوات مما أدى الى سخط الناس واستيائهم .

وبالرغم من ان عثمان يعرف ما ينطوي عليه أخوه الوليد من سوء السيرة فقد عزّ عليه ان يجد أمامه من أهل الكوفة من يشكو اليه أخاه .

علي يقيم الحد على الوليد بن عقبة أخي عثمان :

ويبلغ عثمان من حبه لأخيه وتعصبه له وإشفاقه عليه وتغاضيه عن مساوئه، أن يغضبه مجيء الرجلين اللذين مثلا أمامه يمثلان شكوى الشاكين وتذمر المستائين من مفاسد أخيه وخاطبهما بلهجة تنم عن الغضب :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ » فأجابا :

« هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية »

وليزيداه يقيناً قدما له خاتم الوليد الذي سلباه إياه وهو صريع الخمرة لا حراك به وكان هذا برهان لا يقبل الريب او الشك .

غير ان الخليفة عثمان يؤذيه ان يسمع طعناً في أقاربه او ذويه ويعتبر ذلك كيداً بهم وحسداً لهم فهو منهم على اساءاتهم كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

لهذا لم يرق له ان يرى أمامه من يشهد على أخيه بما يسوؤه فنهض من مكانه وتقدم من الشاهدين ودفعهما في صدريهما غاضباً محنقاً وقال :

« تنحيا عني »

وسرعان ما سرى النبأ في المدينة تتناقله الألسن في سخط واستياء على تهاون الخليفة في قصاص المذنبين كما فرضته الشريعة السمحة الغراء .

ويتصل النبأ بمسامع عليّ وهو في طليعة الذين يحرصون على إقامة حدود الله فأتى الخليفة يعاتبه ويستحثه ان يعدل الى الحق وقال له وهو يستنكر قصة الشاهدين :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود »

وما عسى ان يجيب الخليفة وعلي يتكلم من صميم تعاليم القرآن والسنة فلا يجد مناصاً من ان يسأل عليا :

« فما ترى ؟ » . فيجيبه :

« أرى ان تبعث الى صاحبك فإن أقامها الشهادة عليه في وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير عثمان بدأ من العمل برأي علي ، واستحضر الوليد وشهد الشاهدان على مرأى ومسمع منه ولم يستطع الوليد ان يدفع شهادتها ولم يعد أمامه إلا الحد.

ووضع السوط ليستعمله من يريـــد في الوليد . ولكن كلاً من الحاضرين غلبت عليه هيبة الخليفة وعز عليهم ان يجلدوا أخاه أمامه كما أنهم أشفقوا على الوليد وهو الأمير وأخو الخليفة يقف أمامهم في مذلة المذنب وهوان العاصي. حتى الحسين بن علي تلكأ عن تلبية طلب أبيـــه في جلد الوليـد منتحلاً له عذراً وقال :

« يكفيه بعض ما ترى »

غير أن ابن ابي طالب لا تأخذه في الله لومـة لائم ولا يعرف الهوادة في إقامة حدود الله فتناول السوط وأقبل على الجاني يريد ان يحده .

ويرى الوليـــدُ في عليّ الحزم والتصميم فيسوؤه ان يراه مقدماً على ما أحجم عنه الآخرون وقامت في نفسه ثورة على علي فراح يراوغ منه ويوجه اليه كلمات فيها لون من السباب والإهانة وما لبث عليّ ان قبض عليه وهو القوي المفتول الساعد وحاول الوليد ان يتملص منه فلم يستطع وراح يدافع عن نفسه بيديه ورجليه وعليّ ينهال عليه بالسوط وهو طريح على الارض .

ولم يتمالك عثمان شعوره أمام هذا المشهد وأخذته الشفقة على اخيه وحزّ

في نفسه ان يصيبه على مشهد منه مثل هـــذا الهوان فقال لعلي بلهجة ملؤها الغضب :

« ليس لك ان تفعل به هذا »

فأجاب علي والسوط يلهب جسم الوليد :

« بلى ، وشر من هذا ، إذا فسق ومنع حق الله ان يؤخذ منه »

استياء وسخط عام على الخليفة عثمان :

لقد اصبح الاستياء من عثمان عاماً لمـا رأيناه من تهاونه في شؤون المسلمين وتغاضيه عن عماله وتبذير المـــال من خزينة المسلمين وإنفاقه منه على من لا يستحق وحرمان المستحقين وحسبنا دليلاً على هذا الاستياء ما قاله عبدالرحمن ابن عوف نادماً على ما سلف من بيعته لعثمان : « **لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلي** » .

ولم يقتصر استياء النـاس من الخليفة على عامة الناس وخاصتهم بل شمل حتى بعض أقاربه .

فهذا محمد بن أبي حذيفة من خاصة أهله يغضب لانه آثر غيره من أقاربه في المنـاصب والصلات وهو يرى نفسه اكـــثر كفاية من كل هؤلاء . ونراه يدعو للانقضاض عن هذا الخليفة ويؤلب عليه من لقيه من الناس فإذا رأى رجلاً عائداً من غزو الروم يسأله :

« أمن الجهاد ؟ » فيجيب :

« نعم »

فيقول « لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » ويسأل الرجل : «فأي جهاد ؟» فيجيب : « **جهاد عثمان** » وينضم الى جمـاعات الحانقين على عثمان ويساندهم ويدعو بدعوتهم .

أحداث الكوفة والبصرة

حين عين عثمان سعيد بن العـاص على الكوفة خلفاً لأخيه الوليد بن عقبة بعد قصة الخمر التي اسلفنا ذكرها .

فأول عمل قـام به أن غسل منبر المسجد لكي يطهره من أرجاس سلفه ثم اعتلاه وقال :

« والله لقد بعثت اليكم وإني لكاره ، ولكنني لم أجد بداً إذ أمرت ان أأتمر ، إلا ان الفتنة قـد أطلعت خطمها وعينيها ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تعييني »

ماذا نستطيع ان نفهم من قول ابن العاص ومن عمله .

انه في عمله حين غسل المنبر يقر الكوفيين في ثورتهم على سلفه الوليد حتى خلعوه .

إذن فما هي الفتنة التي أطلعت خطمها وراح يرمي بها الكوفيين ؟

ان سعيد قرشي عريق في قرشيته ينزع الى الاستقلال ويميـل الى السيادة بعيداً عن الرعية إلا ما هو في نطاق تقرب العبد من سيده .

فهو إذ ينكر من أهل الكوفة ان يطالبوا بالمساواة وان يشعروا بأن لهم

كياناً ولهم واجبات وحقوق ويريدون ان يقام لها ميزان قسط وعدالة .

غير ان سعيداً لم يكن ذلك الوالي الحـــازم الذي يأخـذ الأمور بالشدة والعنف فهو حين رأى في الكوفة وضعاً لم يرق له كتب الى عثمان الخليفة يقول:

« إن أهل الكوفة قد اضطرب امرهم. وغلب اهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البـلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حق ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها » .

فهو إذن يقر التفرقة بين السيد والمسود. ولنترك الكوفة الآن مع أميرها الجديد يحيط نفسه بهـــالة من العظمة والأبهة لا يفكر يوماً في ان يتغلغل في صفوف الشعب فيتعرف الى أهدافه وغاياته ولنمضي الى البصرة لنرى مـاذا يجري هناك .

ماذا في البصرة ؟

لقد كان أبو موسى الأشعري واليـاً على البصرة من عهد عمر بن الخطاب وهو حين دخلها استصحب معه تسعاً وعشرين سيداً من سادات قريش ليستعين بهم في الحكم دون اهل البصرة .

دخل الأشعري البصرة وفيه نزعة من زهد وتصوف ولكنه ما كاد يجلس على كرسي الامارة يحيط به هذه النخبة من سادات قريش ورأى نفسه وهو المتصرف في واردات البلاد مالت نفسه للبذخ والترف بوحي من هذه الحاشية التي تنزع للحياة المترفة السعيدة .

ونزعت نفس الأشعري الى حب المـال وجمعه فتوفر له الكثير منه ومن الماشية والمتاع حتى انه شوهد وهو يخرج الى حرب الأكراد قد أخرج متاعه على اربعين بغلاً .

وعم في البصرة الاستياء والتذمر من هذا الوالي، ولو أنه كان هذا وضعه في عهد عمر لما تأخر لحظة في استقدامه ومحاسبته حساباً عسيراً بعد تنحيته عن منصبه .

غير ان عثمان ولينه وما عرف عنه من تساهله مع عماله لم يكن من السهولة حمله على خلع هذا الوالي المترف الذي هو دون غيره ترفاً وبذخاً من بقة عمال عثمان إذا ما قيس اليهم . ولكن نفوس البصريين التي ينزع سوادها الى الزهد والتقشف وينصرف اهلها الى طلب العلم والتبحر فيه كانوا يروا في مثل ابي موسى وما آل اليه وضعه رجلاً قدانحرف عنالفطرة الاسلاميه وحادعن تعاليم الاسلام وعن نهجه القويم فلا غرو إذا رأينا السخط عليه يتمخض عن وفد يشخص الى الخليفة يرأسه « غيلان بن خرشة » ليعفيهم من هذا الوالي .

وكأن عثمان لم تعد تحتمل نفسه ان يرى ولاته موضع تذمر وشكوى ما دامت منزلتهم من منزلته والتذمر منهم هو تذمر منه بالذات خصوصاً ما أصابهمن الخزي بسبب تولية اخيه الوليد حينجلده عليّ علىمرأى ومشهد منه.

لذلك نراه يستقبل وفد البصرة ويصغى الى قولهم :

« ما كل ما نعلم نحب ان نقوله فأبدلنا به »

وكأن عثمان خشي ان يكون في واليه من الفساد ما يفرض عليه العقاب ولم يشأ ان يستوضح القوم عن مساوئه فسرعان ما سألهم :

« فمن تحبون ؟ »

ان غيلان رجل داهية عرف مرامي قومه ولم تكن حقيقة استيائهم من الأشعري بذخه وترفه . إن كان هذا شعار قلة من تلك الحلقات التي كانت تضمها المساجد للتعبد وطلب العلمفاتخذ ذلك شعاراً عاماً معقولاً لخلع الأشعري

الذي تملك زمامه حاشية قرشية غريبة عن البلاد أما بقية القوم وعلى رأسهم غيلان فيريدون والياً مهما كان شأنه من الفساد والخلاعة شرط ان يملكوا زمامه ويسيرونه وفق إرادتهم ومآربهم . فلنستمع الى غيلان الداهيـة وهو يطلب البديل حين ترك عثمان لهم الخيار في نوعية الوالي الذي يرغبون فيه عند قوله « فمن تحبون ؟ » :

« يا أمير المؤمنين ، في كل أحد عوض من هذا العبد الذي أكل أرضنا ، وأحيا أمر الجاهلية فينا، فلا ننفك من أشعري كان يعظم ملكه على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منـه . أو مهتداً كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه »

غرق عثمان في تفكير عميق بعد ان سمع إجابة غيلان بشأن الوالي الجديد وبعد ان خصصه بـــل أشار ببنانه اليه فمن هو يا ترى هذا الوالي الصغير ؟ ومن هو هذا المهتد ؟ في هـذا غرق عثمان يتتبع في خياله بنان غيلان الى حيث يشير .

ان غيلان يود والياً ولو مثل الوليد ولو ظفروا به إذاً لجعلوه مطية الى غاياتهم ومآربهم مستغلين سقطته الاولى .

ويخرج الداهية غيلان عثمان من تفكيره متابعاً قوله :

« حتى متى يأكل الأشعري هـذه البلاد ؟ أما منكم صغير فتستشبوه ، أما منكم خسيس فترفعوه ، أما منكم فقير فتجبروه »

هنا ضرب غيلان على الوتر الحساس في الخليفة الذي يرغب ان يكون الوالي أموياً من أقربائه وما زال فيهم من يليق للولاية والسلطة وهـذا ابن خاله « عبد الله بن عامر » انه مـا زال شاباً في الخامسة والعشرين من عمره

وهو يتطلع الى السلطة اذن فليكن هو الأمير الذي هدف اليه غيلان .

ورحبت البصرة بأميرها الصغير الجديد بعد ان تخلصت من أميرها الشيخ وحاشيته ورجت فيـــه ان يكون ليناً هين المأخـذ ممكن الانقياد بسبب حداثة سنه .

لقد كانت هناك بقية من حروب مع فارس وأثبت هذا الوالي أنه يحسن القيادة وأخضع للدولة بقاعاً منها كانت تجر عليها المتاعب واستطاع ان يؤمن حدود بلاده منها .

غير ان الجندية شيء وإدارة الأمة شيء آخر .

عبد الله بن سبأ والمذهب الجديد :

لقد قامت في البصرة دعوة هدامة مـا استطاع هذا الوالي ان يصل إليها ويقضي عليها في مهدها إنهـــا فكرة قامت بنفس يهودي هو « ابن السوداء عبد الله بن سبأ » . إنـه من صنعاء خرج منها وفي قلبه ما في قلب ملته من الحقد والبغض للإسلام ، نزل حـــاضرة الإسلام وتظاهر بإسلامه تغلغل بين صفوف الجماهير الإسلامية عرف مراميهم ومقاصدهم وعرف ان منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم تحت عثمان وعرف ان النفوس تنزع الى علي بن أبي طالب وهو الرجل الذي يريد ان يستغل اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد وان كان هو لا يتقبلها ولا تنطلي عليه وان كانت تهدف الى توليته وتنصيبه .

ولعلم هذا السبئي ان تربة المدينة لا تصلح لبذر فكرته ومذهبه فلا بد ان يجد لها تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي أكلها إنه وإن كان في المدينة من يتقبل الفكرة مـــا دامت تقوم على رفع شأن علي ولأن في المدينة كثير من يحبونه

ويوالونه غير ان علياً ما إن يسمع بها حتى ينهض لمحاربتها لأنه لا يريد ان يرتفع عن طريق البدع والافتراءات .

ورأى ابن سبأ ان خير تربة لفكرته هي التي تكون بعيدة عن مرأى ومسمع علي . إذن فليس غير البصرة بعيدة عنه وبعيدة ايضاً عن مناهضة الدولة وقضائها على كل دعوة تقوم مخالفة للحكم القائم خصوصاً إذا كان فيها ما يمس الخلافة من قريب او بعيد .

إذن في البصرة يستطيع ابن سبأ ان يبذر فكرته الهدامة التي تهدف الى تقويض كيان الدولة الإسلامية .

ان في البصرة – كما في كثير غيرها من الأقاليم الإسلامية – أذهاناً تتقبل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم الذي انحرف عن تعاليم الشريعة الغراء وعامل الناس بغير العدالة والمساواة الإسلامية التي آخت بين الناس وألغت الفوارق بينهم ولكن الوضع الآن يختلف فهنا السيد والمسود والتابع والمتبوع يترفع كل عن الآخر ترفعاً يتنافى مع بساطة الإسلام وتواضعه وإخائه بين المسلمين جميعاً كبيرهم وصغيرهم سيدهم وحقيرهم غنيهم وفقيرهم .

المذهب السبأي الجديد :

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك الى معاد »

لقد أول اليهودي الأسود هذه الآية تأويلا انطلى على كثرة وافرة من المسلمين خصوصاً وهم إذ ذاك قليلو المعرفة بتفسير آيات القرآن فقد أوّل الآية المذكورة بقوله :

« العجب ممن يزعم ان عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع »

لقد ارتاح الناس لأن يجدوا مسلماً منهم يبشر بعودة نبيهم ثانية الى الحياة،

وراح يوسم دعوته الدينية هـذه بسمات سياسية كفيلة بتغيير الحكم وتبديله مما تزداد النفوس ارتياحاً اليـه بسبب تذمرهم واستيائهم من الحكم القائم لأن ابن السوداء هذا اليهودي الذي تملىء نفسه حقداً على الإسلام ويود من أعماقه ان يقوض أركانه ويقضي على معالمه ، عرف كيف يضرب على الوتر الحساس في نفوس المسلمين لعدم رضاهم عن الخلافة القائمة ، خصوصاً وإن هذا السبأي اليهودي على جانب كبير من الدهاء والذكاء . وما ان عرف ان بذرة فكرته قد أخرجت نبتتها وان النبتة قد نمت وآتت ثمرها الذي تلقفته بشهية الجهلة من الناس وأصحاب المعرفة المحدودة منهم .

فراح يتطلع الى شخصية بارزة يجعلها مناراً لدعوته فراح فكره يبحث عنها من البقية الباقية من صحب رسول الله .

ليس ثمة أولى من عليّ بن ابي طالب يجعل منـه منار دعوته ووسيلته في انتشارها فهو محبوب من كل الفئات وفي جميع الجهات. ولم لا يكون كذلك وهو ابن عم رسول الله وختنه على الزهراء وأبو سلالته الطاهرة والد الحسن والحسين .

وتقدم من أنصـــاره ومريديه الذين ارتاحت نفوسهم الى دعوته وفتنوا بقصة رجعة الرسول راح يفسر مبدأه ويؤوله ويلخصه بما يلي :

« إنه كان الف نبي ولكل نبي وصي . وكان عليّ وصي محمـد ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء . فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصي رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

هذا هو الكلام الحق بعينه أريد به الباطل ولكن أين هي العقول الراجحة التي تدرك كنهه وتعرف مرمـــاه البعيد ولكنها مع ذلك نزلت من قلوب

العامة منزلة الرضى وارتاحت اليه النفوس وتقبلته حسناً وبودها لو عُمل به ونفذ بحذافيره ، وإذا كان فيهم من لم ترتح نفسه الى الرجعـــة فقد سره في الدعوة التمسك بوصية رسول الله واستخلاف ابن عمـه وصهره علي ابن أبي طالب .

انهم لم يفتهم تلك الصورة الرائعة حين وقف رسول الله بين الألوف المؤلفة في حجة الوداع عند غـدير خم حين وقف يستظل من حرارة الشمس الملتهبة بثوب علق على شجرة وينادي في هذه الحشود الزاخرة قائلا :

« أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »

فتهتف الأصوات من كل صوب تجيب :

« الله ورسوله أعلم » .

فيقول الرسول الكريم :

« إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم »

ثم أخذ بيد علي وهو الى جانبه فرفعها حتى بان بياض ابطيهما وأردف يتم الحديث :

« فمن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعـاد من عاداه »

عرض ابن السوداء هذه الصورة ثانية على الناس وجددها في أذهانهم دعماً لتعاليمه الجديدة وتأييداً لفكرته التي ركزها على علي بن أبي طالب .

فكيف يتخلف بعد هذا العرض لهذه الصورة عن دعوته من في قلبه ذرة لحب رسول الله وآل بيته الطاهرين ؟ خصوصاً وإن في الفكرة ما يهدم عهد عثمان وخلاص الناس منـــه ومن ولاته المستهترين بحقوق الأمـة المتهاونين في شؤون المسلمين وقضاءً على هذه الفوضى القائمة .

بدأ ابن السوداء يبث دعوته ويلاقي لها قبولاً ، وانتشرت في البصرة وما حولها . فهل هذه الدعوة لم تطرق مسامع واليها الجديد عبد الله بن عامر ؟ انـــه ولا شك علم بها ولكنه قابلها بعدم المبالاة بـل نقول ان ابن عامر لم يكن له بسبب حداثة سنه من التبصر في الامور مما يجعله يدرك ان في مثل هذه الدعوة ما له خطره عليه وعلى الحكم القائم ولو كان له مثل هذا التبصر او العمق في التفكير إذاً لقضى على هـذه الدعوة وهي تحبو ، ولدفن فتنتها وهي في المهـد . بل لو كان لابن عامر ايمان كامل صحيح وتفقه في الدين لقضى على هذه الدعوة من هـذه الزاوية لأن الدين لا يجيز الرجعة وليس في القرآن وفي سنن الرسول مـا يفيد ذلك وان ابن السوداء قـد أول الآية « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » تأويلاً باطلاً .

وقد جاء في تفسير هذه الآية تفسيراً صحيحاً ما يلي :

« (إن الذي فرض عليك القرآن) خطـاب للنبي ﷺ والمعنى ان الذي أوجب عليك الامتثال بمـا تضمنه القرآن وأنزله عليك (لرادك الى معاد) أي يردك الى مكة .. عن ابن عباس ومجاهد والجبائي ، وعلى هذا فيكون في الآية دلالة على صحـة النبوة لأنه أخبر بـه من غير شرط ولا استثناء وجاء الخبر مطابقاً للخبر .

قال القتيبي : معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البـلاد ثم يعود اليه ، وقيل الى معاد الى الموت .

عن ابن عباس في رواية اخرى وعن ابي سعيد الخدري وقيل الى المرجع يوم القيامة ، أي يعيدك بعد الموت كما بدأك . عن الحسن والزهري وعكرمة وأبي مسلم ، وقيل الى الجنـة . والظاهر يقتضي أنه العود الى مكة ، لأن ظاهر العود يقتضي ابتداء ثم عوداً اليه ، على أنه يجوز ان يقال الجنة معاد

وإن لم يتقدم له فيها كون ، كما قال سبحانه في الكفار : « ثم ان مرجعهم لإلى جهنم »[1] .

هذا هو التفسير المنطقي السليم للآية ، وإذا جاز تأويل ابن السوداء على جماعة المسلمين فذلك لجهلهم وندرة الذين تناولوا آيات الله بالتفسير والتأويل من المتفقهين في الدين في ذلك العصر .

وحين لقيت دعوة ابن سبأ آذاناً صاغية وقلوباً متفتحة لها وأصبح له أنصاراً عديدون فرق انصاره في البلاد والأمصار ينشرون هذا المذهب ويدعون له من بعد ان يخطط طرق للعمل بعد الكلام .

قال لهؤلاء الانصار :

« ان عثمان قد أخذها بغير حق »

بمثل هذا القول كان يضرب على الوتر الحساس من الناس لأنهم كانوا يأملون في خلع عثمان ثم قال :

« هذا وصي رسول الله ، فانهضوا في الامر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم ، وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس »

ومضى انصاره أولاء يتوزعون في البلاد يبثون تعاليمه وينشرون مذهبه فيجدون في كل اقليم من يرحب بهذه الدعوة ويتقبلها لأن نفوسهم صادية الى رجل جديد او عقيدة جديدة او أي وسيلة اخرى للتخلص من الحكم العثماني.

واستفاق ابن عامر من غفلته وقد رأى دعوة ابن سبأ تملأ القلوب بعد الآذان ويلهج بها كل لسان ولم يعد في نطاق قدرته ان يحد من نشاطها

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٢٠ ص ٣٢٧ طبع دار مكتبة الحياة — بيروت .

فضلاً عن أن يستأصل شأفتها او يقف في وجهها ولو أنه فعل إذاً لدفع الناس الى فتنة هم متوقعوها ولكان هو وحكمه حطباً لنارها المتأججة وراح يُعمل الفكر ويقلب الأمر على وجوهه فخرج بنتيجة من ذلك اطمأنت لهـا نفسه وارتاح لهـا قلبه وفكره ليس غير نفي ابن سبأ من البصرة وإنه خير تدبير حازم يريح ابن عامر ولكنه تعب كبير للحكم والخلافة بل خطر كبير عليها إذ بنفيه يفتح له مدرسة جديدة لتعاليم مذهبه في الاقليم الذي سيحل فيـــه منفياً .

وخرج ابن سبأ من البصرة متجهاً الى الكوفـــة وعلى ثغره ابتسامة وفي وجهه بشر وفي قلبه شكر لأولئك الذين مهدوا له السير بدعوته بدل القعود بها في مكانه ، فهو وإن كان قد بث رسله ودعاته في الآفاق إلا أنه صاحب الدعوة ويعرف كيف يمهد لها ويجعلها تنزل في قلوب الناس مباشرة من غـير جهد او عناء لأن انصاره في البلد الذي ينزل فيـــه يضاعفون جهودهم حين يرون صاحب المبدأ بالذات بينهم .

ولكنه ما كاد يستقر بالكوفة حتى طرده منها سعيد بن العاص واليها بعد ان تمكن ابن سبأ من تدعيم مذهبه فيها لأن تربة هذا البلد اخصب من أية تربة لبذوره التي لاقت من نفوس أهلها خير حقل فيه الماء .. وفيه الحرارة .. وهما العنصران الأساسيان للبذرة لكي تنمو وتنبت وتؤتي ثمرتها المرجوة إذ ان اهل الكوفة أقرب وأميل الى التمرد ومكافحة الحكم القائم من أي بلد آخر .

ويترك ابن سبأ الكوفة وقد نضجت فيها ثماره المرة المسمومة القاتلة والتي توشك ان تمتد اليها يد آكلها التي أعدت له .

ويغادر الكوفة الى الشام منفياً اليهـــا ، ولكن في الشام شعباً أحب

واليه ومعاوية الداهية لا يجهل مآل دعوته وعاقبتها خصوصاً وإنه قد وشح دعوته بجلباب شخص تهفو إليه القلوب وتنزع النفوس وتهواه الأفئدة لذلك خشي أن تؤثر مبادىء ابن سبأ على حب شعبه له فيؤلبهم عليه وليست دعوة أبي ذر منه ببعيدة لذلك نراه يشهر على ابن سبأ نفس السلاح الذي حاربه به ابن عامر وابن العاص فيخرجه من الشام ويحرم عليه المكوث في كل البقاع التابعة لها .

وينتهي المطاف بابن سبأ في مصر وهناك يحط رحاله وأخذت دعوته هنا تنمو وتنتشر حتى أصبحت مصر مقراً رئيسياً للسبئيين .

نقمة عائشة على عثمان :

لقد أصبح عهد عثمان من أحط العهود الإسلامية فقد انتشرت الاضطرابات الفكرية في البلاد وتعددت الأحداث وتدنت الأخـــلاق وراح رجال الدين ينعتون الخليفة بالوهن والخور والضعف لأنـه كان سبباً لكل هذه الفوضى .

وفي الحق إن عثمان لم يتهاون في أمر الدين بل كثيراً ما كان يكافح العصاة إلا أنه كان له من بطانته ما يحول دونه ودون أي اصلاح لذلك كان كفاحه محدوداً وفي نطاق ضيق لم يتقبله الناس خصوصاً مـا كان من أمر عائشة فقد طرق مسامعها التدهور الخلقي بين الناس فنقمت على عثمان لأجله وراحت ترميه بكل ما يثير عليه النفوس ولم لا تقف من عثمان هـذا الموقف وهي الحافظة لتراث الرسول ولها من العلم مـا يجعل رأيها في عثمان حكماً قاطعاً مبرماً ليس له من ينقضه او يفض منه . وأطلقت عائشة لسانهـا ينال من عثمان وراحت تؤلب الناس عليه الى حـــد ان هداها فكرها الى اسلوب يلهب الناس ثورة

ونقمة على عثمان فعمدت الى قميص لرسول الله ونشرته في بيتها وكلما مرّ به أحد قالت :

« هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

فهل من إنسان يحسن الظن بالخليفة عثمان — إن وجد هـذا الإنسان — ويبقى عند حسن ظنه به بعد أن يسمع هذا الكلام ؟

لقد أصبح هم عائشة ان تخلع هـذا الخليفة الذي حاد — بنظرها — عن سنة زوجها وتناولها بالتغيير والتبديل . بل تطرقت في حقد على الرجل الى حد دفعها لأن تقول . وقـد علمت ان حشوداً كثيرة من الثائرين تحيط بدار عثمان :

« والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه فألقيه في البحر الأخضر » .

بوادر الثورة على عثمان :

نادى عبد الرحمن بن عوف وهو غاضب ابن اخته قائلاً :

« يا مسور إذهب أنت فأطلقها ثم أدعني انظر » .

فامتثل الرجل أمر خاله وذهب الى مرابض الإبل مع رجل من بني عبد يغوث فساقا من غير إذن عثمان ولا إذن من له في الإبـل ملك ، وأقبل عبد الرحمن وتأمل الإبل ثم فرقها على الفقراء .

وكان هـذا تحدياً لعثمان من ابن عوف وهو الذي كانت له اليد الطولى في استخلافه .

هذه صورة من هوان عثمان على الناس حتى من اولئك الذين ساقوا الخلافة اليـه .

وإليك صور أخرى من هذا الهوان .

قال جبلة بن عمر وقد سمع بعض القوم يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا » .

ثم نهض من المجلس ولحق بعثمان وفي يـــده جامعة وقطع عليه الطريق وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك او لتتركن بطانتك هذه » .

وكان لا بدّ لعثمان من اصطناع الحلم والروية وإن يكن قد آلمه هذه الجرأة عليه فقال :

« أي بطانة ؟ فوالله اني لا أتخير الناس » .

ويجيبه جبلة والغضب فيض لهجته :

« مروان تخيرته، ومعاوية تخيرته، وابن عامر تخيرته ، وابن سعد تخيرته، ومنهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله دمه » .

فتأمله عثمان برهـة ثم مضى عنه لا يبدي شيئاً . ولكن جبـلة امعاناً في الزراية به راح يلوح بقبضته في الهواء ويقول :

« والله لأقتلنك يا نعثل ، ولأحملنك على قلوص جرباء ، ولأخرجنك الى حرة النار » .

وعم السخط على عثمان وراح أصحاب رسول الله يرسلون كتبـاً الى إخوانهم المتفرقين في الأقاليم الاسلامية يخبرونهم بأحداث عثمان ويحثونهم على جهاده وفيما قالوه لهم :

« انكم إنما فرحتم ان تجاهدوا في سبيل الله ، تطلبون دين محمد ، ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك ، فهلموا فأقبلوا فأقيموه » .

وهذا العنبري ذلك الرجل الصالح والتقي الورع تخيره بعض الناقمين على عثمان ليكون لسانهم عنده ويعبر عن استيائهم منه .

ويدخل على عثمان ويؤدي الرسالة بكل أمانة وبصراحة الرجال الصالحين الذين لا يخشون غير الله ولا تأخذهم في دينه لومة لائم فيقول :

« يا أمـــير المؤمنين ، ان ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً . فاتق الله عز وجل ، وتب اليه ، وانزع عنها » .

وسرعان ما التفت عثمان الى من حوله ساخراً بهذا الرسول وقال :

« انظر الى هـــذا فإن الناس يزعمون انه قارىء ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات ، فوالله ما يدري أين الله » .

فأجاب العنبري برزانته المعروفة وهدوئه :

« أنا لا أدري أين الله » ؟ فيجيب عثمان :

« نعم والله ما تدري أين الله » .

وينهض العنبري ويخاطب عثمان وقد هم بالخروج :

« بلى والله . وإني لأدري ان الله بالمرصاد لك يا عثمان » ويخرج من لدنه غاضباً .

* * *

كأن هذا الخليفة قد أصم اذنيه عن سماع كل نصيحة أياً كان مصدرها ولم يعد يستسيغ النقد .

ولكن الشعب أبى ان يترك هـــذا الخليفة على عناده وتصلبه في رأيه

وأرادوا ان يغيروه بـأية وسيلة ، وراحوا يبحثون عن الرجل الجريء الذي يستطيع ان يقف أمام عثمان وقفة الند لا يخافـه ولا يخشاه ويفرض عليه الاعتدال فرضاً ويملي عليه النصح إملاء ويثنيه ولو بالقوة عن تماديه في تهاونه بأمور المسلمين والدين .

فمن هو هـذا الرجل الذي يستطيع حمل مثل هـذه الرسالة الخطيرة الى عثمان وراحت نظراتهم تبحث عنـه في ارجاء مدينة الرسول والتقت جميعها بعلي بن ابي طالب فهو من أصحاب رسول الله وابن عمه وختن ابنته ومثله من غضب للحق اذا هُضم ويثور للدين إذا خُذل .

وأخرجته الجماهير من بيته وسارت به الى قصر الخلافة فما أحد من هذه الجماهير إلا وندّد بأفعال عثمان وعـدّد مثالبه وألحى على انحرافه وبيّن اخطاءه .

ودخل علي على عثمان وحرص ان يكون حديثه معه ليناً وقال :

« إن الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ووالله ما أدري مـا اقول لك ، ما اعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وكم رأيت ما رأينا ، وسمعت ما سمعنا ، وصحبت رسول الله كما صحبنا ، ومـا ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وأنت أقرب الى رسول الله وشيجة رحم منهما ، وقد نلت من صهره ما لم ينالا » .

ثم عمد علي بعد هذا القول اللين الى إبداء النصح لعثمان عساه ينزع عمـا انكره منه الناس من تلقاء نفسه فقال متمماً حديثه :

« الله الله في نفسك ، فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطرق لواضحة ، وإن اعلام الدين لقائمة ، فاعلم ان افضل عباد الله عند الله إمـام عادل هدي وهدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة مجهولة ، وإن السنن لنيرة لها اعلام ، وان البدع لظاهرة لهـا اعلام ، وان شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضُل بـــه ، فأمات سنة مأخوذة ، وأحيى بدعة متروكة ، إني سمعت رسول الله يقول: يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معـــه نصير ولا عاذر ، فيلقى في جهنم ، فيدور فيها كما تدور الرحى ، ثم يرتبط بها في قعرها » .

ثم راح علي يحذره من عواقب تهاونه وعـدم مبالاته بشعور شعوبه ومن الأحداث التي توشك ان تسفر عن شر مستطير يحيق به كما انه صارحه بكل ما من شأنه ان يجر عليه الويلات والنكبات وأن يبادر الى علاجها قبل ان تستفحل وقال :

« اني انشدك الله ان لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : يقتل في هـذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويبث الفتن فيها ، فلا يبصرون الحق من الباطل ، يموجون فيها موجاً ، ويمرجون فيها مرجاً ، فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر » .

ويفكر عثمان فيما قاله علي ان ما فعله لا توجب كل هـــذه او يسبب كل هذا السخط والاستياء وليس غير الحسد والبغض لأهله وأقاربه قد حملهم على هذا كله نستدل على هذه الخواطر من هذه الاجابة التي جاوب بها علي حين قال :

« قد والله علمت ليقولن الذي قلت ، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا اسلمتك ولا عبت عليك ، أجئت منكراً ان وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ورليت شبيهاً بمن كان عمر يولي » ؟

فأجاب علي :

إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنمـــا يطأ على صماخه ان بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ بـه أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، خصصت ورفقت على اقربائك » .

وكأن الحديث عن عمر قـد أثار في نفسه الغيرة والحمية ، لم لا يكون له حزم عمر وصرامته ما دام لا يحدي مع هؤلاء القوم الرقة واللين ؟

ومضى بعد مجلسه مع علي الى المسجد حيث كان الناس محتشدين ينتظرون ما يعود به اليهم علي، ولشدّ ما كانت دهشتهم حين رأوا عثمان يعتلي المنبر بوجه متجهم عبوس وراح يخاطبهم قائلاً :

« ألا قد والله عبتم عليّ بمـــا أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم او كرهتم ، ولنت لكم، وأوطأت لكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ، أما والله لأنا أعز نفراً ، وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً ، وأقمن ان قلت هلمّ أتي إليّ ، ولقد اعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت عن نابي ، وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم انطق به، فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا » .

وصمت قليلاً ليترك لهم مجـال التفكير في كلامه هذا واستيعابه ثم ليلمح مدى تأثرهم به وتأثيره فيهم وراح يتابع قوله :

« أما والله ما قصرت في بلوغ مـا كان يبلغ من كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، أتفقدون من حقوقكم شيئاً ؟ فـما لي إذن لا أفعل في الفضل ما أريد ؟ ولم كنت إماماً » ؟

سمع القوم كلامه هذا وكأنهم في غيبة عنه إذ ما يجدي الكلام وقـد وجدوا من فعاله مـا جعلهم يضيقون به ذرعاً . وكان مروان بن الحكم الى جانبه يرمي القوم بنظرات ملتهبة ملؤها الغضب وبيده سيفه فانـبرى يقول وقد لمس ما في أقوال عثمان من الشدة والحزم :

« إن شئتم حكـّمنا والله بيننا وبينكم السيف ، إنمـا نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبَتْ بكم مغارسكم تبنون في دمن الثرى»

وأراد عثمان ان ينزع ما فينفوس الناس منانه مسير بإرادة مروان منقاد إليه فالتفت إليه قائلا :

« اسكت لاسكت، دعني وأصحابي ، ما منطقك في هذا ألم أتقدم إليك ألا تنطق » ؟

* * *

إن لحادث تجمهر الناس في المدينـة وإخراج عليّ من بيته لمقابلة عثمان وخطبة عثمان في المسجد كان له اثره العميق في البـلاد خصوصاً وان الكتب التي ارسلت من قبل بعض الصحابة الى إخوانهم في الخارج ، فقد راح هؤلاء يحرضون الناس على مناهضة عثمان بكل الوسائل .

وتلقف السبئيون النبأ بحرارة وهم الذين كانوا يتحينون الفرص وينتهزون

الاحداث وها هي قد واتتهم وآن لابن السوداء ان يبدأ بشكل عملي في تنفيذ برنامجه ومشروعه ما دامت النقمة على عثمان قد اصبحت عامة .

وها هو عبد الله بن سبأ يحلب اليه ساعداً من سواعد عثمان الذين يعتمد عليهم ويثق بهم انه « عمار بن ياسر » أحد الرسل الذين أوفدهم عثمان الى الامصار ليستطلعوا لها الاخبار ويقفوا على رأي الجماهير فيها ويتعرفوا اسباب النقمة عليه .

وكان في جملة هؤلاء الرسل محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعاد جميع هؤلاء الرسل ما عدا عمار الذي تخلف في مصر مع ابن سبأ. لا ليكون معه كما توهم بل ليقف على حقيقة دعوته.

عاد رسل عثمان وكأنهم كانوا في نزهة مع انفسهم وليس في جعبتهم ما يشير من قريب او بعيد الى هذه الجماهير الملتهبة حماساً للثورة على عثمان والنقمة منه، بل على العكس من ذلك فقد راحوا يطمئنون الناس بهذا القول:

« أيها الناس ، ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم ، فالأمر أمر المسلمين وأمراؤهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم !!» .

ولسنا ندري كيف استطاع ان ينكر هؤلاء الرسل الحقيقة التي اصبحت واضحة كالشمس في رابعة النهار ويعرفها الصغير والكبير والحاضر والبادي .

إنهم ولا شك يعرفون الحقيقة ، وقفوا على توتر الوضع في البلاد فهم من دهاة الناس وليسوا من الغفلة بحيث يفوتهم هذا التوتر وذلك الهياج وقد عم الاقطار ، فما سبب كتمانهم لها بل نطقهم بعكسها ؟

إن السبب يعود الى عاملين لا ثالث لهما فهم إما ان يكونوا قد كتموا ما شاهدوا بايعاز من الولاة والامراء او بايعاز من الخليفة نفسه لتهدئة الناس بعض الوقت حتى يتمكن من تلافي الامور .

ولكن مـاذا عسى يستطيع عثمان ان يعمل وقد خرج الامر عن طوق التلافي والتدبير فها هو رسول عامـله على مصر ابن ابي سرح ومعه كتاب يقول فيه :

«إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه، وقد خرجوا وهم يظهرون العمرة وشيعهم محمد بن أبي حذيفة حتى عجرود» .

وتضطرب نفس عثمان لهـذا النبأ ويعجب ان يكون قريبه وولي نعمته محمد بن ابي حذيفة من وراء هـــذه الجموع التي احتشدت وخرجت من مصر تبيّت في نفوسها عـــداء له لا يعرف اين ينتهي بهم هذا العداء . ولم يتمالك ان قال :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ والله مـــا أراهم يريدونها ، ولكن الناس قد دُخل بهم وأسرعوا الى الفتنة ، وطال عليهم عمري ، أما والله لإن فارقتهم ليتمنون ان عمري كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة » .

ويعجب لعامله ابن ابي سرح كيف لم يتخذ أيّ اجراء تجاه هؤلاء الثوار ويرد رسوله اليه يأمر الوالي بأن يتعقب الثوار ويردهم .

غير ان ابن أبي سرح الذي حاول تلبية الخليفة وتعقب الثوار وكان بإمكانه ان يلحق بهم ويردهم لولا ان واقاه نبأ من مصر يفيد ان محمد بن أبي حذيفة قد التفت الناس حوله وأصبح خطراً على البلد فـــآثر ان يعود الى مقر ولايته خشية ان يفلت المنصب منه او ان تنقلب المدينة كلهـا على الحكم فتتضاعف نكبته بخروج المنصب والمسؤولية أمام الخليفة فعاد لتوه الى مقر عمله .

ونزلت الحشود بعيد المدينة وهم أخلاط من جميع الأقاليم فيهم الكوفيون

وفيهم المصريون والبصريون والمكيون وقـــد ألف بينهم هدف واحد وغاية واحدة هي فساد الحكم القائم .

ولم يكن هدفهم من تحشدهم هذا خلع الخليفة بالقوة ولا الإساءة اليه إنما كانوا يهدفون الى اصلاح الوضع ورسم خطة عملية للخليفة يحملونه على اتباعها والسير على نهجها وإبعاد هذه الحاشية الفاسدة والبطانة الضالة المضلة . وراحوا يتشاورون فيما بينهم ومـا كان لهم ان يقتحموا المدينة ويتحدوا شعور أهلها إذ فيهم الصحابة وفيهم بقية وافرة من آل رسول الله ، وأشفقوا ان داهموا المدينة من غير مشورتهم او اخذ رأيهم او طلب معاونتهم ان يكون لهم من هؤلاء مدافعون عن حرمة مدينتهم فتسفك دماء وتزهق أرواح فيرتدوا على أعقابهم وقد باؤوا بالفشل .

لهذا ارسلوا رسلا منهم يتشاورون مع رجالات المدينة ولم يكونوا بأقل منهم نقمة واستياء من الوضع. لهذا التأمت جماعة الناقمين في المدينة مع جماعة الثائرين القادمين من الخارج .

غير انهم لم يكونوا على رأي واحد في شأن رجل يولونه الخلافة فـيما اذا أصر الخليفة على عناده والاستمرار في خطته والاستبقاء على حاشيته وبطانته ودعت الحال الى عزله .

وكان في الأفق الاسلامي ثلاثة اشخاص من صحابة رسول الله بل هم البقية الخيرة الصالحة التي يمكن ان يعول عليها في تحمل عبء الخلافة .

فأهل البصرة تتجه ابصارهم نحو طلحة بن عبيد الله وأهـل الكوفة نحو الزبير بن العوام وأهـــل مصر نحو علي بن ابي طالب وجاء لكل من هؤلاء رسول ممن وضع فيه ثقته .

ويطرق رسول علي بابه ويبلغه رسالة أهـــل مصر وما عزموا عليه من تنحية الخليفة وتوليته الخلافة ولكن علياً تأبى عليه مروءته ويأبى عليه دينه ان يأخذ خلافة تسبب التفرقة بين المسلمين بل ربما أدت الى سفك الدماء وفي جملتها دم الخليفة اذا أبى ان يتنحى عن الخلافة وهو آبٍ من كل بد .

ولقد رفض علي تلك العروض التي قدمها له محمد بن ابي حذيفة في رسالة سرية بعث بها اليه من مصر وهو ولم يكتف بأن يرفض هذه العروض بـــل قدر ان ثمـــة اناس غيره تتطلع اليهم الأبصار في شأن الخلافة امثال طلحة والزبير فحملهم ان يقفوا الى جانبه ويطفئوا هـــذه الثورة التي بدت ألسنة نيرانهـا بالإندلاع وراح كل من الثلاثة الى انصاره وعمل جاهداً على اقناعهم بالعدول عن موقفهم بعد ان وعدوهم بتعديل الموقف وإعادة الأمور الى طبيعتها وحمل الخليفة على الاعتدال والتوبة والرجوع عن تماديه في إسرافه .

ووصل في هـذه الآونة رسول من الثوار يحمل رسالة الى عثمان فأدخله عثمان وفض الرسالة التي جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فاعلم ان الله لا يغير مـــا بقوم حتى يغيروا مـا بأنفسهم . فالله الله ثم الله الله ، انك على دنيا فاستتم اليها معهـا الآخرة ، ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا ، واعلم أنا والله لله نغضب وفي الله نرضى ، وان لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة او ضلالة مبلجة ، هـذه مقالتنا لك وقضيتنا اليك والله عزيزنا منك والسلام » .

وأمر عثمان بإخراج الرسول من الدار من غـير ان يفاتحه بأي شيء او يحمله شيئاً الى من أرسله وقد علم بموقف علي منه ومن الثوار .

غير ان هذا الموقف من علي وصاحبيه طلحة والزبير ما كان ليجعل عثمان يطمئن او يهدأ باله والحشود ما زالت ضاربة حول المدينة وخشي ان طال بها المقـــام ان تسوق اليها الأقدار أناساً ينفخون نارها الخامدة التي أخمدها علي وصاحباه .

وإن عثمان قد عزم من صميمه ان يعـدل عن خطته وينفض كفيه من ادران الماضي وينيب الى الله كما عزم ان يعلن هذه التوبة على مـلأ من الناس بما فيهم تلك الحشود التي وردت من الخارج لينصرفوا راضين .

وكيف يتيسر له ذلك ومن له بمن يسوق اليه هذه الجماهير الغفيرة تصغي اليه وتسمع له من غير ان يكون بينهم من يقول كلمة تجرح كبرياءه وتخدش كرامته بعد ان تعددت منه الوعود بالتبديل والتغيير وإصلاح الوضع .

من له برجل يضمن له هدوء الناس وإصغاءهم اذا خرج اليهم خطيباً ؟ ولم يطرق قباله غير شخصية لها ثقتها في نفوس الناس ولها نفاذ حكمتها انه علي ابن ابي طالب .

ويدلج عثمان في ظلمة الليل ويقصد منزل علي وحين دخل عليه قال :

«يا ابن عم، إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبحي، وأنا أعلم ان لك عند الناس قدراً ، وانهم يسمعون منك ، فأنا أحب ان تركب اليهم فتردهم عني ، فإني لا أحب ان يدخلوا عليّ فإن في ذلك جرأة وليسمع بذلك غيرهم » .

ويلحظ علي فيه تغييراً، ان بين جنبيه نزوع عن خطته وركون الى التوبة فقال علي يستوثق منه ذلك :

« علام أردهم ؟ »

فأجاب عثمان :

«على ان أصير الى ما أشرت به عليّ ورأيت لي، ولست اخرج من يديك»

ويرد علي عليه :

« اني قد كلمتك مرة بعد مرة، فكل ذلك تخرج فتقول، وتعد ثم ترجع، وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم وعصيتني »

ويجيب عثمان اجابة فيها الجد والصدق :

« فإني اعصيهم وأطيعك »

ودخلت القناعة نفس علي بما أدلى به عثمان وينهض من توه الى ذي خشب حيث مضارب الثوار من المصريين يرافقه محمد بن مسلمة وجماعة من صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار ونجح علي في مهمته وأطفأ النار التي كانت تتأجج في نفوسهم بحسن بلاغته وقوة حجته وجعل قلوبهم صافية على عثمان، ونهض علي وصحبه لمغادرة القوم واجتمع محمد بن مسلمة ببعض زعمائهم ينهاهم ويحذرهم للفتنة قائلاً :

« إن في قتله لاختلافاً عظيماً فلا تكونوا أول من يفتحه ، ولسوف ينزع عن الخصال التي نقمتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك » قالوا :

« فإن لم ينزع ؟ » فيجيب :

« فأمركم اليكم » وتركهم ليلحق بصحبه وقد عادوا الى المدينة فناداه ابن عديس :

« ألا توصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟ »

فالتفت اليه ابن مسلمة وقال يذكره بالوعد وبالوفاء الذي قطعه لعلي بن ابي طالب :

« تتقي الله وحده لا شريك له ، وترد من قِبَلك عن إمامه فإنه قد وعدنا ان يرجع وينزع »

فقال : « اني فاعل إن شاء الله »

وبذلك أشار ابن مسلمة الى عمار بن ياسر الذي بقي في مصر يؤلب الناس على عثمان وقد أوفد اليه سعد بن ابي وقاص يسترضيه على الخليفة .

* * *

ويعود عليّ وصحبه الى عثمان ليطمئنه بنزوع القوم عن مخاصمته وإقناعهم بالعدول عن النقمة عليه وان قلوبهم قد صفت نحوه غير انه لا بد له من ان يبرهن للقوم عن حسن نيته ويشير عليه بالخطة التي يجب ان ينتهجها فيقول :

« يا أمير المؤمنين ، تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة ، فإن البلاد قد تمخضت عليك ، فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا علي اركب اليهم ، ولا أقدر ان أركب اليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم ركبٌ آخرون من البصرة فتقول : يا عليّ اركب اليهم ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بك »

ويصل في هذه اللحظة محمد بن مسلمة ويروح هو الآخر يحذره قائلاً :

« الله الله يا عثمان في نفسك ، إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك بل هم يقودون عدوك عليك »

وثق عثمان بكل مـــا قيل له وعرف ان هؤلاء ناصحون له صادقون في نصحهم ، مخلصون في أقوالهم وقد لمس في قول ابن مسلمة حقائق راهنة فهو لم ير من كل من ادعى له الولاء والوفاء من يمد اليه يده وقت الشدة .

نهض عثمان يقصد المسجد ليدلي بوعـدٍ لا يمكن نقضه ابداً فقد صمم على تنفيذ وصية ابن ابي طالب بحذافيرها وبكل صدق وإخلاص . وحين وصل المسجد اعتلى المنبر وقال :

« اني منتني نفسي وكذبتني ، وضل عني رشدي ، ولقـد سمعت رسول الله يقول : من زل فليتب ومن اخطـأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة ، إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق »

وكأنه استشعر من نفسه استصغاراً لهـذا الموقف الذي يقف فيه معترفاً بأنه ضل عن سواء السبيل وما كانت نفسه تنطوي قبلاً على الفساد ولا الضلال ولكن هؤلاء النفر من حاشيته وبطانتـه وعلى رأسهم مروان بن الحكم قد زينوا له الانحراف وجعلوه يسلك طرقاً فاسدة شائكة بعـــد ان يفرشوها له بالورود .

لهذا نراه بعد الكلمات تلك يذرف الدموع الغزار حتى بللت لحيته ويرفع يديه الى السماء متابعاً خطابه وقال :

« اللهم إني أتوب اليك، اللهم إني أتوب اليك، اللهم إني أتوب اليك، »

لقد أثر منظره هـذا في نفوس الناس تأثيراً عميقاً فلم تبق عين إلا بكت ولا قلب إلا كاد يتمزق، ولا كبد إلا كادت ان تنفطر. فصفت نحوه النفوس، ورقت له القلوب ثم أردف عثمان يتم خطابه :

«أيها الناس مثلي قد نزع وتاب ، وأنا أول من اتعظ ، استغفر الله مما

فعلت وأتوب اليه ، فإذا نزلت فليأتني أشرفكم فليروني رأيهم ، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنّ بسنة العبيد، ولأذلن ذلة العبيد، ولأكونن كالمرقوق إن ملك صبر وإن اعتق شكر . فما لي مذهب من الله إلا اليه .

أيها الناس لا يعجزنّ عني خياركم أن يدنوا إليّ ، فوالله لأعطينكم الرضا، ولأخينّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم ، ولئن أبت يميني لتتابعني شمالي »

وهنا أحس عثمان بالارتياح وقد عـــلم انه بخطابه هذا ملك قلوب الناس ثم فتح باب ديوانه على مصراعيه .

مروان بن الحكم زيت نار الثورة ثانية :

هـــدأ الناس بعد خطبة عثمان واستتب الأمن في المدينـة بعض الشيء ومضت الحشود التي كانت خارج المدينة كلٌّ الى إقليمه بعد ان أقرهم على ما طلبوه من عزل الولاة الذين لا يرغبون في بقائهم .

وراح يجزل العطاء الى المستحقين من أهـــل المدينة بعد ان حجبه عنهم أمداً طويلا وأمت الوفود بابه ما بين طالب عطاء أو متظلم أو شاك فكان يقضي حاجات الجميع .

ولكن أصحاب الغايات الشخصية من الذين ألفوا الفساد والهدم أبوا ان تسير الأمور على هذا المجرى الهادىء لأنها تخالف امزجتهم الخبيثة ولأنهم لا يطيب لهم العيش إلا في جو الفساد ولا تهنأ لهم الحيـــاة إلا إذا حملوا معول الهدم وراحوا يخربون ويعبثون .

وليس هؤلاء غـير أولئك الذين أسعدتهم صولة الحكم وأنشتهم السلطة وأنعشهم النفوذ يأمرون فيطاعون ويطلبون فيُلبون . وعزّ عليهم ان تفلت

السلطة من أيديهم وان يقضي الناس حاجاتهم عن غير طريقهم وأنهم أصبحوا كسقط المتاع لا يؤبه لهم ولا يُركن اليهم .

انهم مروان بن الحكم وأعوانه رأوا أنفسهم في معزل عن السلطة ليس لهم من أمرها أو نهيها شيء .

فراح مروان يتحين الفرص لكي يبث سمومه ورأى عثمان في مجلس يضم مجموعة من بني أمية اقاربه الأدنين وهو يعلم ان في نفوسهم من المرارة بهدوء الوضع مثل الذي في نفسه ورأى الفرصة مواتية وظهر بمظهر المخلص يريد ان يبدي رأياً فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟ »

غير ان نائلة زوج الخليفة علمت ما يريد ان ينفثه من شرور نفسه في قلب الخليفة فقاطعته غاضبة :

« لا بل اصمت ، لأنتم والله قاتلوه ، وميتمو اطفاله ، إنه قد قال مقالة لا ينبغي ان ينزع عنها »

وأحنق كلامها مروان وأوجعه ان تفسد عليه تدبيره وأخرجه غضبه عن طوره وواجب اللياقة بمراعاة احترامها أمام الخليفة فقال :

« وما أنت وذاك ؟ فوالله لقد مات ابوك وما يحسن ان يتوضأ »

ولم تكن نائلة من العجز عن الجواب بالشكل الذي تصوره مروان . فأجابته :

« مهلاً يا مروان عن ذكر ابي إلا بخير ، أتخبرني عنه وهو غائب وتكذب عليه ؟ أما والله لولا ان أباك عم عثمان وانه يناله غمه لأخبرتك من أمره بما لا اكذب عليه »

وأدهشه هـذا الجواب ان يصدر عن امرأة مثـل نائلة ، غير انه اهتبل فرصة ثانية خلا فيها بالخليفة فراح يندد بوقفة عثمان الذليلة وقت التوبة وقال وهو يتظاهر بالحرص على كرامته والإخلاص له :

« بأبي انت وأمي يا أمير المؤمنين ، والله لوددت ان مقالتك هذه كانت وانت ممتنع منيع ، فكنتُ أول من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلت مـا قلت وقد بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة . تستغفر الله منها أجمـل من توبة تخوف عليها ، فما زدت ان جرأت الناس عليك »

فأجاب عثمان إجابة من قد نـدم على مقاله لأن مروان أوحى اليه ذلك في حديثه السابق :

« قد كان من قولي ما كان والغائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً »

وهنا رأى مروان انه قد تمكن من نفس الخليفة فقال :

« إن الناس قد اجتمعوا ببابك امثال الجبال » فقال عثمان :

« فما شأنهم »

وواتت الظروف لمروان ان يعود لاستغلال الخليفة فقال :

« أنت دعوتهم الى نفسك ، فهذا يذكر مظلمة ، وهـذا يطلب مالاً ، وهذا يسأل نزع عامل !! »

قال مروان هذا وراح يتأمل الخليفة بعينين ملؤهما الاستغراب والاستهجاء لمثل ذلك . واجابه عثمان بعد قليل :

« اني استحي ان أردهم ، فاخرج انت اليهم فكلمهم »

وكانت هذه هي الفرصة التي كان يترقبها ويتلهف شوقاً اليها ليستعيد فيها اعتباره ويسترد سلطته ولو على هدر كرامة عثمان وتردي سمعته .

وخرج من مجلس عثمان معتزاً بنفسه يجر اذيال الخيلاء والكبرياء وظهر في شرفة الدار يتأمل الجموع التي ازدحمت بالباب وراح يرشقهم بنظرات الإزدراء وصاح بهم في شدة وعنف :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه ، تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا ؟ أغربوا عنا فوالله ان رمتمونا لنمرن عليكم ما حلا ، ولنحملنّ بكم ما لا يسركم ولا تحمدوا فيـــه غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فإنا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا »

صعق الحاضرون لهـذا العنف الذي قابلهم به مروان على لسان الخليفة ومن شرفة داره ، وسرعان مـا انتشر النبأ في المدينة وراحت الناس تسلق الخليفة بألسنة حداد على انه نكث العهـد ونقض التوبة وفيما هم في غمرة من دهشتهم ما بين مصدق ومكذب إذا بعثمان يفاجئهم ويقطع عليهم شكوكهم فأتاهم يخطب فيهم وكأنه يؤيد مروان في عزمه وشدته وعنفه فقال :

« أما بعد أيها الناس إن هؤلاء القوم من اهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا الى بلادهم »

وعلا صوت من أحد جوانب المسجد يقطع خطاب عثمان مستنكراً وهو في استنكاره ينفّس عن حقد دفين في نفسه لا غيرة على صالح المسلمين وقال:
«اتق الله يا عثمان، إنك ركبت اموراً وركبناها معك فتب الى الله نتب»

فأجابه عثمان في حدة وغضب :
«وإنك ها هنا يا بن النابغة ؟ قلت والله جبتك منذ تركتك من العمل»

وبدا في الحاضرين ممن في المسجد هياج شديد وراح عثمان يسمع منهم قارس الكلام وانسل من بينهم الى داره .

وراحت المدينة تردد ما كان من امر عثمان في المسجد وامر مروان في دار الخليفة ومضت جماعات منهم الى عليّ يخبرونه بما حدث فأسرع الى المسجد وهو لا يكاد يصدق بعد ما كان من توبة عثمان وندمه ، وهناك لقيه عبد الرحمن بن الأسود فقال عليّ يسأله :

« أحضرت خطبة عثمان ؟ » فأجاب ابن الأسود :

« نعم »

فضرب عليٌّ كفاً بكف وقال :

« عياذ الله ! يا المسلمين ! اني ان قعدت في بيتي قال : تركتني وقرابتي وحقي ، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد ، لعب به مروان ، لقد صار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله »

ثم مضى من فوره وقد ملأه الغضب حتى أتى عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا ان يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه كجمل الظعينة يقاد حيث يسار به ، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا عقله ، وإني لأراه يوردك ثم لا يصدرك ، وما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، أفسدت شرفك وغلبت على رأيك »

وخرج علي عجلان لا يلوي على شيء ودخلت على اثره زوج الخليفة نائلة فرأته متجهم الوجه منقبض الصدر تلوح عليه أمارات الحزن والأسى وكأنه أسف على ما بدر منه وندم على ان أعطى الزمام الى مروان مرة ثانية فقالت له نائلة :

قد سمعت قول علي لك ، وأنه ليس براجع اليك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء » .

فقال لها :

« فما أصنع يا نائلة » ؟

وآنست فيه بسؤاله هـذا إنساناً مغلوباً على أمره حائراً لا يدري له من أمره مخرجاً فقالت له :

« تتقي الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، وليس لمروان عند الناس قدر ولا هيبة ، ولا محبة. فإنما تركك الناس لمكانه منك، وإنما رجع عنك أهل مصر لقول علي، فأرسل اليه فاستصلحه فإن له عند الناس قدراً لا يعصى » .

ويبعث عثمان رسولاً الى علي يستدعيه ليصحح معه أخطاءه . ويرد علي الرسول قائلاً :

« قل له ما انا بداخل ولا عائد » .

قال هذا علي وقد يئس من وعود عثمان ونكثه من جهة ومن جهة اخرى فقد اصبح يستحي ان يكلم الناس في شأن عثمان .

فماذا يصنع عثمان وقـد كلفته زوجته نائلة ان يتصل بعلي وها هو رسوله إليه يأتيه بجواب يجعله ينفض كفيه من مساعي علي ومؤازته له. وإزاء طلب نائلة وجد نفسه مضطراً لمقابلة علي ليرى ما يكون منه ، ومضى اليه في هدأة من الليل متستراً بظلامه ووصل داره واستقبله علي بما يليق به كخليفة وراح عثمان يعتذر ويسأله أن يبذل له النصح ويـدله على الطريق الذي يخرجه من مأزقـه .

وأخذ علي يتأمله مفكراً بوسيلة يدل عليها هذا الحائر الذي جـــاء اليه يستشيره فرأى فيه إنساناً لا تجدي فيه النصيحة ولا تفيده المشورة فقال له ابو الحسن قولاً فيه صراحة وصدق :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان الى الناس يشتمهم على بابك » ؟

ولعبت الوساوس في نفس عثمان من قول علي وراح يشك في اخلاصه له، لأن ظن في تذكيره له بموقفه وخطابه إنما يريد أن يدفعه عنه ، كما أنه اعتقد ان شدة علي عليه كلما جاءه لاسترشاده ناجمـة عن حقد دفين في نفسه ومن الغريب ان يخامر عثمان أي شك في اخلاص علي وقد رأى بأم عينه ما بذله من جهود إبان محنته الأخيرة وجهوداً مماثلة قبلها .

ومن الغريب العجيب ان يحضره في هذه الساعة قول قاله مروان في علي ويعتقد بصحته : « هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه ، بما ظنك بما غاب عنك منه » ؟

كل هـــذا خطر بباله وهو أمام علي فنهض تبدو عليه امارات التأثر واليأس وقال :

« خذلتني يا أبا الحسن وجرأت الناس عليّ » .

عجيب والله أمر عثمان يرتكب الأخطاء وتجره بطانته وأقرباؤه وعلى رأسهم مروان بن الحكم الى الانحراف والإساءة للناس ثم يلقي بتبعة ذلك كله على عاتق سواه ؟!

وأجابه علي وهو يودعه الى الباب :

« والله اني لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكني كلما جئتك بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولي » .

فلم يجب عثمان ومضى بلفه الظلام في طياته .

* * *

عاد الاضطراب الى المدينة ونفض الناس كفهم من استقامة الخليفة ونزوعه عن اصلاح الوضع بعدما كان منه ومن مروان وراحت الألسن تتناقل الأخبار وكان لرجال الثورة الذين غادروا المدينة رقبـــاء خلفوهم فيها ليقفوا على الأحداث التي تطرأ ويوافوهم بها .

وها هو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار يمضي ليخبرهم بما كان من أمر عثمان وأمر مروان بن الحكم .

ومـا هي إلا أيام حتى شاع نبأ عودة المصريين ثانية الى ذي خشب ولعل عجلتهم هذه بالعودة ناجمة عن ريثهم في الطريق ليقفوا على مدى وفاء عثمان بعهده الذي قطعه لهم ، وإلا فليس من المعقول أن يكونوا قد وصلوا بلادهم ويعودوا بمثل هذه السرعة .

وروع عثمان الخبر فلم يرَ بداً من أن يستدعي محمد بن مسلمة وقد علم ان الخطر محدق به وحضر بن مسلمة فقال له عثمان :

« يا أبا عبد الرحمن هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأي » ؟

وبدا الأسف والحيرة على ابن مسلمة وقال :

« والله ما أدري ، إلا أني أظنهم لم يرجعوا لخير » .

وازداد عثمان من جوابه قلقاً وحيرة وقال :

« فارجع اليهم فارددهم » .

واستغرب ابن مسلمة من عثمان هذا الطلب وقال :

« لا والله ما أنا بفاعل » .

ويزداد عثمان تخوفاً من هذا الرفض ويقول :

« ولِمَ يا أبا عبد الرحمن » ؟

فيجيبه في لهجة فيها الثبات والحزم :

« لأني ضمنت لهم اموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها ، فلا والله ، لا أكذب الله في سنة واحدة مرتين » .

وأدخل جواب ابن مسلمة اليـــأس في نفس عثمان وراح يقلب الأمر على وجوهه ليجد له مخرجاً من هذا المأزق خصوصاً وقد ورده كتاب من أهـل المدينة يتوعدونه فيه بالقتل او يعيد اليهم حقوقهم كاملة وهو يعلم ان في اعطائه لهم مثل هذه الحقوق تجريده من كل أقاربه وذويه وقص اجنحته التي يزعم انه يطير بها بل يريدون ان يجردوه من كل صلاحياته فيعمل بمـا يرون وبما يشيرون ولا يبقى له من الخلافة إلا اسمها واستعصى عليه الحـل ونفض كفه من كل ناصح او مسعف. فجمع اهله وذوي قرباه الأدنين يستشيرهم ليرى ما عسى ان يرشدوه اليه وقال :

« قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج » ؟

وليس غير مروان يعرض عليه آراءً فيها المخادعة والمراوغة فقال له :

« يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب ، فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك » .

فأجاب عثمان :

« إنهم لن يقبلوا القليل ، وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان ، فمتى اعطهم ذلك يسألوني الوفاء به » .

ويجيب مروان جواباً فيه المراوغة والتضليل وفيـــه الغدر الذي جبلت عليه نفسه :

« إنما بغوا عليك فلا عهد لهم، فأرسل الى علي ان يردهم عنك، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك » .

وإزاء الموقف المتأزم الحرج لا يرى عثمان بداً من مقابلة علي فأرسل اليه يستقدمه ، ومـــا كان لعلي ان يتخلف عن تلبية طلبه رغم رفضه لمشيئته بالأمس ، لأنه فعل وانزوى في بيته وأغلق بابـه دونه وصم أذنيه عن سماع شكاته لاتهامه بالتألب عليه ومساندة الثوار ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن علياً نقي السريرة لا يضمر حقداً ولا عداء لعثمان فهو لهذا لا ينقطع عنه حرصاً على عثمان وضناً بالمسلمين أن تشملهم فتنة لا تحمد عقباها .

ونراه يسرع الى عثمان فيبادره عثمان :

« يا أبا الحسن إنه قد كان من الناس مـــا قد رأيت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمنهم على قتلي ، فارددهم عني فـــإن لهم الله عز وجل ان اغنيهم من كل مـــا يكرهون ، وان اعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي » .

فقال له علي في لين وإشفاق :

« يا أمـــير المؤمنين ، الناس الى عدلك أحوج منهم الى قتلك ، ولكني أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى ، لقـــد كنت اعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع مـــا نقموا منك ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء ، فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق » .

فأجاب عثمان بقول الواثق المتيقن :

« فأعطهم يا أبا الحسن فوالله لأفين لهم » .

ونهض علي من مجلسه وخرج فالتقى بجماعات الثوار وسوادهم من المصريين تزحف نحو بيته وقرأ في وجوههم بوادر الغضب والسخط وعجب ان يرتدوا بهذه السرعة بعد ان وعدوه بالرحيل ورحلوا .

وسألهم مستغرباً :

« ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم » ؟

فقدموا إليه رسالة مبهورة بختم عثمان لعامله في مصر يأمره فيها ان يقتل رؤوس الفتنة ويحبس الآخرين وقد عثروا على هذه الرسالة مع خادم الخليفة في طريقه الى مصر .

وراح علي يجيل بصره في هذه الجموع فرأى في جملتهم طلحة مع جماعة من البصريين والزبير مع جماعة من الكوفيين ، وعلم ان الأمر دبر في المدينة ولم يعدها وان هؤلاء القوم كانوا مرابطين بعيداً عن المدينة بعدما انتقلوا من امكنتهم التي كانوا فيها موهمين انهم راحلون ولم يسعه إلا ان يصارحهم بذلك قائلاً :

« هذا والله أمر ابرم في المدينة » .

فأجابوه إجابة فيها الحزم والتصميم وفيها بلوغ الاستياء أقصاه :

« فضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل فليعتزلنا » .

فراح علي يدافع عن عثمان ما وسعه الدفاع ويظهر لهم انه مظلوم وان الرسالة موضوعة مكذوبة بكل تأكيد ثم قال لهم بعد ان وجد فيهم الميل الى الاستماع اليه :

« افكم إنما طلبتم الحق ايها الناس فقد اعطيتموه ، ان عثمان منصفكم

من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه ، فأجابوه :

« قد قبلنا ، فاستوثق لنا منه فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل » .

وعاد علي لعثمان يطلب اليه ان يلبي مطالب القوم بشكل فوري إذ لم تعد تجدي الوعود فقال عثمان يستمهله :

« يا أبا الحسن اضرب بيني وبينهم اجلاً يكون لي فيه مهلة ، فإني لا اقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد » .

فيجيب علي :

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .

ويتضايق عثمان من هذا الالحاح والإسراع ويقول :

« فأجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام » .

وحرر علي وثيقة على عثمان يؤجله فيها ثلاثة أيام يجيب خلالها مطالب القوم من رد المظالم وتنحية العمال الذين لا يرغبونهم وأخذ عليه عهد الله وميثاقه بالوفاء وأشهد عليه بعضاً من الأنصار والمهاجرين .

وارتد الناس عنه وعاد المصريون الى مضاربهم بذي خشب ينتظرون ما سيكون خلال هذه الأيام الثلاث فإن نفذ عثمان مطالب أهل المدينة فيطمئنون حينئذٍ على تنفيذ مطالبهم ويرحلون وإلا فلهم إدارتهم في ان يفعلوا كل ما من شأنه ان يؤمن حقوقهم .

وفي الواقع لم يكن في إمكان عثمان ان يحرك ساكناً وليس غير مروان ابن الحكم الذي أخذ على عاتقه حل الازمة حين أشار على عثمان ان يقابل علياً ليرد عنه هذه الجموع ويستمهلها بضع أيام . وها هو علي قد فعل بدافع ضميره وميله الى السلامة .

كانت غاية ابن الحكم من هذا التأجيل ان يخمد في نفوسهم هـذه الثورة القائمة وهـذا الغضب المشتعل بالتأجيل والتسويف فلا يلبث القوم ان يملوا ويذهب كل الى سبيله ولقد برهن في تفكيره هـذا على حمق وغباء يصحبهما غدر ومكر ولو انـه كان على جانب من الذكاء لقرأ في عيون القوم الحزم والعزم على التصميم وعلى تنفيذ مآربهم مهما كلف الأمر ، ولولا ثقتهم بعلي بن أبي طالب واحترامهم له وتقديرهم اياه لما تزحزحوا خطوة واحدة عن منزل عثمان حتى ينالوا حقوقهم المشروعة كاملة غير منقوصة .

غير ان مروان كان لا يفكر إلا في تدعيم مركزه وتثبيت سلطانه بأية وسيلة لا يهمه من هذا الشيخ أنقض عهداً او خالف ديناً او بذل مـاء وجهه لهذا او ذاك في سبيل أن يدفعوا عنه خطراً يدعم مركزه ويبقي على خلافته ليبقى من ورائه صاحب الحكم والأبهة .

انقضت المدة ولم يحرك عثمان ساكناً ولم ينفذ شيئاً من المطالب التي أعطى عليها عهـداً أشهد الله عليه وشهد بعض الأنصار والمهاجرين وراحت الألسن تلغط وبدت في المدينة تحركات وتجمعات فمـا كان من مروان إلا ان أحاط المنزل بقوة من العبيد المأجورين وسلحها باحسن سلاح معتقداً ان هذه القوة ستقاوم القوم حتى تاتيه الإمدادات من الخارج وكان قد ارسل باسم عثمان الى ولاته ليمدوه بنجدات .

غير ان الناس عادت للتذمر وتبين لهم ان الخليفة يماطل ويسوف دون أن يكون في نيته تغيير الوضع او تـأمين شيء من مطالبهم وحقوقهم وأجزموا أن هذا الخليفة لا يفي وعداً ولا ينجز عهداً .

غير ان هذه الحشود ما كانت لتباشر العنف والشدة مع الخليفة قبل ان

فقطع آخر أمل لها منه وقبل ان تطلق آخر سهم من كنانة صبرها وحلمها . فارتأى بعض العقلاء فيهم ان يذهبوا الى محمـــد بن مسلمة ويجتمعوا اليه ويعرضون عليه رسالة عثمان الى عامله في مصر ، فيقول لهم :

« وما يدريكم ان عثمان كتب بهذا ؟ » فأجابوه :

«أفيفتئت مروان عليه بهذا ؟ فهذا شر ، فليخرج إذن نفسه من الأمر . يا أبا عبد الرحمن انطلق بنا اليه ، فقد جئنا سعد بن أبي وقاص فأبى وقـال لا أدخل في هذا الامر ، وجئنا غيره فقال كما قال ، فانطلق معنا فقد كلمنا علياً فوعدنا اذا صلى الظهر ان يدخل عليه »

ومضت هذه الجموع يتقدمهـا ابن مسلمة الى عثمان وكان ابن ابي طالب قد وصل وانضم اليهم ودخل عليه علي وابن مسلمة وقالا له :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب فأذن لهم »

وتدخل مروان في الامر وكأن له الامر والنهي في قصر الخلافة :

« دعني — جعلت فداك — اكلمهم »

فقال له عثمان بلهجة قاسية يتظاهر بالغضب عليه وعدم رضاه عنه:

« فض الله فاك ، ما كلامك في هذا الأمر ؟ اخرج عني »

وأدرك علي وابن مسلمة ان مروان ما يزال له الكلمة على الخليفة وأن الخليفةما يزال يُصدر عنه ويعمل برأيه وان الرسالةمن صنعه ما في ذلك شك.

وراح عثمان يقسم لهما انه ما كتب الرسالة ولا علم له بها . فقال له علي :

« فأدخلهم عليك فيسمعوا عذرك »

ولم يكن بوسع عثمان ان يقابلهم استحياء لما سبق يوم خطب ووعد وتاب وأناب لله وبكى ، لهذا قال لعلي :

« يا أبا الحسن ، إن لي قرابة ورحماً ، والله لو كنت في هذه الحلقة لحللتها عنك ، اخرج انت الى القوم فكلمهم فإنهم يسمعون منك »

فأبى علي ذلك لكثرة ما قدم لهم من الوعود فأذعن عثمان وأدخل القوم عليه وقام بينه وبينهم حوار وجدل حول الرسالة وغيرها من أفعاله ونقضه بوعوده وعلي وابن مسلمة يدافعان عنه وانتهى هذا الجدل والحوار بأن قالوا له :

« فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق ، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا ، واردد علينا مظالمنا »

لقد كانت مطالبهم هذه مطالب حق عادلة كان على عثمان ان يحققها لهم بشكل فوري وبدون تأخير ، خصوصاً وقد رأى الوضع قد تأزم وان الحالة خطرة ، غير ان سموم مروان قد سرت في دمه فأبى حتى في هذا الظرف الحرج إلا ان يتكلم بعقلية مروان وان يستعمل منطقه الهدام فأجاب القوم :

« ما أراني إذن في شيء ان كنت أستعمل من هويتم ، وأعزل من كرهتم ، الأمر إذن أمركم ! »

وصعق القوم لهذا القول وأسقط في يد علي وابن مسلمة وعلموا ان مروان أركب الخليفة رأسه وحمله على العناد وعدم الوفاء بشيء من وعوده وعدم تلبية مطالب هؤلاء الناس الذين وصل بهم السخط الى ذروته . فانبرى اليه ابن عديس وشر الغضب يتطاير من عينيه وخاطبه قائلاً :

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ، فانظر لنفسك أو دع »

ونزل هذا الانذار نزول الصاعقة على ابن مسلمة وابن أبي طالب اللذين لم يتركا في جعبتها سهماً إلا أطلقاه ولم يدخرا وسعاً ولم يتركا وسيلة في سبيل

تهدئة الوضع وإنقاذ الخليفة وهاهو بكلمته هذه قد قضى على كل مساعيها من اجله ، وهو لم يكتف بذلك القول بل قال ما هو شر منه فقد اردف يقول:

« لان اقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من ان اخلع قميصاً قمصنيه الله »

فأجاب بن عديس :

« فلسنا اذن بمنصرفين عنك حتى نعزلك ونستبدل بك ، ولئن حال دونك من معك من قومك وذوي رحمك لقاتلناهم حتى نخلص اليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله » .

وتركوه وانصرفوا ومضى علي وصاحبه كل الى داره منزوياً وراح الناس الى حيث يعدون عدتهم للنكال بالخليفة .

* * *

لبث عثمان ينتظر الأمداد من عماله الذين ارسل اليهم كتباً يستحثهم فيها على مناصرته لقمع الثوار ومما جاء في هذه الكتب قوله وهو ينوه بالكتاب المزور الذي عثروا عليه :

« انما انتكث الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب ، وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا في جوار الله وحرمه وارض الهجرة وثابت اليهم الأعراب منهم كالأحزاب أيام الأحزاب فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق »

ومما أرسله الى معاوية قوله :

« إن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة اهل الشام على كل صعب وذلول »

غير ان معاوية الداهية وهو يعلم ان الخطر محدق بالخليفة ما كان ليتعجل بالاجابة والنجدة رغم مـــا تربطه بالخليفة من وشيجة الرحم وبحكم طاعته له وبوصفه عاملاً من عملائه عليه ان يأتمر بأمره إذ ان للداهيـــة غايات ومطامع ستكشف عنها الأحداث القادمة، وقد ورده تأكيد من الخليفة لوثوقه به أكثر من غيره بسبب سلامة طوية عثمان فأرسل اليه مؤكداً يقول :

« ان القوم طال فيهم مقامي ، واستعجلوا القـــدر فيّ ، فيا غوثاه .. يا غوثاه ! ولا أمير عليك دوني فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم ادرك، ولا أراك تدرك »

وإزاء هذه الصرخة والإستغاثة من الخليفة لم يملك معاوية إلا ان يتظاهر بتلبيته فيرسل قوة عليها يزيد بن أسد القسري وأوصاه بما يلي :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقـل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب »

هكذا يكون الدهاء والمكر ، فقد خشي معاوية ان تأخذ قائد قوته ابن أسد الغيرة على الخليفة اذا تأزم الموقف ، فحد من نشاطه وغيرته بهذا الأمر. فهو كما يبدو من تلك الوصيـــة لا يريد خيراً للخليفة بل يود في أعماقه ان تشتعل الفتنة وتلتهم الأخضر واليابس مـــا دام هو في مقره محصناً مكيناً لا تناله الفتن والأحداث مهما تعاظمت أو تفاقمت .

وهكذا فشل مروان في تأمين الأمداد التي كان يعلق عليها أمـــلاً كبيراً في دفع الثورة ونصرة الخليفة ولم يعد يجديه نفعاً هذا العدد القليل من المرتزقة الذين وضعهم حراساً على دار الخلافة .

وتمور المدينة بزرافات الثائرين يتجولون هنا وهناك حانقين غاضبين تهتف

بتسليم مروان وكان اكثر ترددهم على ابن أبي طالب إذ يرون فيه العقل المدبر الذي يستطيع ان يفرج عنهم كربهم ويحل أزمتهم، ويؤلم عثمان التفافهم حول من يزعم انه خصمه وغريمه وينسى تلك المساعي التي بذلها من أجله فكم من مرة قد دفع عنه شراً مستطيراً .

ولكنه الحقد الأموي الذي يتأجج من زمن بعيد في نفسه وفي نفس أقاربه خصوصاً منهم مروان بن الحكم قد جعلهم يرون في ابن أبي طالب خصماً وغريماً ، وهو في كل الأحداث التي جرت كان منزوٍ في داره لا يبرحها إلا حين يستدعيه عثمان او يخرجه الناس ليكون لهم وسيطاً بينهم وبين الخليفة حتى لقد دفع به ميله الى العزلة أن يترك السكنى في المدينة ويستقر في خيبر لا يتصل بأحد ولا احد يتصل به وإن كانت هذه السكنى بإرادة عثمان وكان يمكنه ان لا ينفذها خصوصاً في مثل هذا الجو الذي يسوده التمرد . وكانت تصل الى مسامعة احداث المدينة والصخب القائم فيها فكان يتألم لهـــا غاية الألم ولا يستطيع لها دفعاً فقد أعيته الحيل في ذلك .

ولقد كان أشد ألماً وهولاً الى سمعه يوم حُصِب الخليفة في يوم جمعة حين ذهب المسجد للخطبة والصلاة فراح الناس يرشقونـه بالحجارة والحصى حتى أوذي عثمان ووقع أرضاً وهو مغشي عليه وحمل الى داره، هال هذا النبأ علياً فغادر منزله في خيبر وأسرع الى منزل عثمان بدافع حبه وإخلاصه يستفسر عن صحته بلهجة الجازع المستنكر :

« ما لك يا أمير المؤمنين » ؟

وتثور في وجهه هذه الفئة الأموية الحاقدة من ذوي عثمان وتقول له قولة رجل واحد :

« اهلكتنا يا علي (!!) وصنعت هذا الصنيع (!!!) بأمير المؤمنين ، إنا والله لان بلغت الذي تريد لنمرن الدنيا عليك » .

نهض علي من مجلس عثمان وغادر منزله والألم يعصف في نفسه ، والعجب والحيرة تأخذ منه كل مأخذ . كيف نسي هـــذا الخليفة ومن ورائه اقرباؤه وذووه دفاعه عنهم ؟ كيف نسوا مساعيه وجهوده في سبيل دفع الناس عـن الخليفة وتهدئته لهم وهو لم يدخر وسعاً ولا ترك وسيلة في سبيل اصلاح الوضع إلا عمد إليها وقـد اجدت وسائله ومساعيه ولكن كان يفسده اقرباؤه وعلى رأسهم مروان .

ها هو علي يعود الى عزلته وها هي المدينة تمور بجماعات الثائرين وتسير بجموعها الغفيرة الى دار الخلافة وتحيط بها تهتف بهتافات فيها الاستنكار وفيها التذمر والاستياء وتحصره في منزله فـلا تدعه يخرج ، ويطل عثمان من شرفة منزله فيرى هـــذه الحشود الصاخبة ويتأمل فيها فيرى طلحة بن عبيد الله وبجانبه ابن عديس زعيم ثورة المصريين رآهما يتساران ثم يغيب طلحة ويلتفت ابن عديس الى أصحابه قائلاً :

« أيها الناس لا تتركوا احداً يدخل على عثمان او يخرج من لدنه » .

ويدخل الروع في نفس عثمان ويعلم أنها مكيدة طلحة ويروح يناجي ربه :

« هذا ما أمر به طلحة ، اللهم اكفني طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم عليّ ، والله اني لأرجو أن يكون منها صفراً ويسفك دمه ، فقد انتهك مني ما لا يحل له » .

وسرعان مـــا ينطلق هشام مولى الخليفة متسللاً من بين الثوار مغادراً للمدينة قاصداً خيبر حيث يقيم علي وهو خير من يرجى في الملمات .

وهال علي ان يحاصر الخليفة بهـذا الشكل المذري فأسرع الى نجدته

ضارباً بعرض الحائط ما كان قـد سمعه من لاذع الكلام وفاحشه من أقارب الخليفة يوم أتى يعوده . وما كان لمثل علي ان يحقد ويتخلى عن مروءته بسبب كلمات قاسية صرفها نحوه أناس طائشون جاهلون .

ووصل علي المدينة ورأى هـــذه التحشدات العظيمة حول دار الخليفة ومضى بينهم في إباء وغضب يشق صفوفهم فلم يسعهم إلا أن يفسحوا له مجال المرور ودخل دار عثمان وما انرآه الخليفة حتى سكن روعه وهتف به قائلا:

« يا أبا الحسن، ان لي عليك حقوقاً : حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الصهر ، وما جعلت لي في عنقك من العهد والميثاق، فوالله لو لم يكن من هذا شيء ثم كنا إنمـــا نحن في جاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف ان يبزهم ملكهم اخو بني تيم » .

ولم تكن لتخفى على ابن ابي طالب مطامع طلحة الذي يرى لنفسه حق الخلافة من بعد ابن عمه أبي بكر .

فأجاب علي :

« أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين » .

ثم مضى الى دار طلحة فرآه وقد التف بـه جمع غفير من الناس فدعاه علي اليه وبادره بقوله :

« يا طلحة ، ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ، وصنعت بعثمان »؟!

فأجابه طلحة في لهجة فيها دهاء ومكر :

« يا أبا الحسن ، أبعد ان مس الحزام الطبيين » ؟

وعلم علي ان الرجل قد ركب رأسه وفي نفسه أطماع ومآرب فلا فائدة

من جداله وتأمل هذا الحشد الذي حوله فعلم انهم جمعتهم حوله المنفعة وجلبهم إليه المال فغادر المكان ومضى والتقى بأسامة بن زيد فاستصحبه ومضى الى بيت المال .

كان طلحة ثرياً وذا سخاء ، ولا يجلب الناس مثل العطاء فبسط كفه لهم وراح يوزع عليهم العطاء والهبات فتجمعوا حوله ولم يخف على علي ذلك وهو الأريب الفطن ولكي يقضي على الفتنة ويفرق هذه الجموع من حول طلحة كان لا بدّ له من أن يتخذ نفس الاسلوب وذات الوسيلة التي جمعتهم حوله وحيث ان علياً فقير لا يملك العطايا والهبات وللقضاء على فتنة لهـا نتائجها الخطيرة على المسلمين لهـــذا لم يرَ حرجاً في توزيع المال على الناس ولو من بيت مال المسلمين .

سأل علي عن خازن بيت المال فلم يجده ولم يكن في الوقت متسع للبحث عنه فضرب بيت المال برجله فكسره وراح يوزع المال على الناس وسرى الخبر الى اولئك الملتفين حول طلحة فراح يتسلل الواحد بعـــد الآخر من حوله ويقصدون بيت المال لينالوا نصيبهم منه حتى لم يبق حول طلحة احـــد وبذلك استطاع علي ان يفرق القوم ويقضي على الفتنة القائمة في ذلك اليوم.

وسر عثمان هـــذه الخطة التي انتهجها علي ونصره فيها على غريمه طلحة غير ان هذا ما كاد يرى نفسه قد غلب على أمره حتى بادر الى دار الخليفة لينفي عن نفسه الشبهة ويعتذر ويدفع عن نفسه الشك غير ان عثمان مـا ان رآه حتى قال له :

« أجئت تائباً ؟ والله ما جئت إلا مغلوباً ، فالله حسيبك يا طلحة » .

* * *

عادالناس الىحصار دار الخليفة وهو اليوم حصار محكم اكثر منأمس حتى حيل بينه وبين الصلاة في المسجد ، وكان لا بدّ من إمام يصلي في الناس ولم يجدوا اكثر كفاءة لها من علي بن أبي طالب فقصدوه وطلبوا ان يصلي بهم فكان جوابه :

« لا أصلي بكم والامام محصور » .

بهذه الكلمة داس علي الدنيا بقدميه ، داس المطامع والمناصب ، داس الأنانية والاستغلال فقد كانت إمامة الناس في غيبة الخليفة لها معناها البعيد، فلو انه قبلها لاتجهت إليه الأنظار في الخلافة وكان موضع ثقتهم فيها . وليت شعري ألم يؤمّ ابو بكر في الناس يوم مرض الرسول وعجز عن الحضور الى المسجد؟! أما آلت اليه الخلافة من بعده بسبب هذه الإمامة؟ فلِمَ لم يستغل علي غياب الخليفة ويؤم الناس؟ لتكون هذه الإمامة مقدمة لما يسعى وراءه غيره مثل طلحة . إن علياً تأبى عليه مروءته ونبله وشهامته ودينه ووفاؤه ان يستغل هذه الظروف ويستغل عداء الشعب للخليفة وينتزعها منه بمثل هذا الأسلوب البشع .

وحين يئسوا من علي ان يكون إماماً قصدوا طلحة فعرضوها عليه فقبلها بكل رحابة صدر وبقي عثمان محصوراً في داره لا يفكر في أي حل لمشكلته بل استسلم للأقدار مع حرصه الشديد على التمسك بالخلافة لا يتخلى عنها مهما كانت النتائج ، كما حرص في الوقت ذاته على أقربائه وفي مقدمتهم مروان فقد أبىان يتخلى عنه او يفسح مجالاً للثوار للنيل منه، إنه يأمل أن تأتيه الأمداد من الخارج فتنفرج الأزمة وبهذا كان يمنيه مروان وبهذا كان يعلل النفس .

الثوار يقطعون الماء عن عثمان :

وحـــين رأى الثوار ان الخليفة مصر على عناده عمدوا الى وسيلة رهيبة خطيرة في حصارهم له فقد منعوا عنه المـاء ونفذوا هذه الوسيلة بكل قسوة وعنف إذ وقفوا ببابه يحولون دون كل من تحدثه نفسه أن يجلب إليه ولو قطرة من ماء يبل بها غليله .

ويتصل النبأ الى علي بخيبر ويستهول الأمر ويستبشعه ويروح يتصور ان الخليفة ظامىء يكاد يتلفه العطش وأن ثمة في الدار نسوة وأطفال يكاد يقتلهم الظمأ فيهب من داره ونفسه تذوب حسرة وألمـاً على عثمان وذويه كما راحت تنتفض غضبة للحق والمروءة كما فاضت هذه النفس الكبيرة بطولة وشجاعة، فقد قصد المدينة وآلى على نفسه أن يدخل له المـاء ولو دعاه ذلك لأن يقف أمام هذه الألوف لوحده يناضلهم ويحاربهم وحيث انه يعلم ان رأس هـــذه الفتنة ومسيّرها هو طلحة فأراد أن يمر بـــه لعله يأمر الناس أن يخففوا من غلواء حصارهم للخليفة ولما بلغه قال له :

« يا أبا محمد » نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان » .

فأجاب في شموخ وإباء :

« لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من نفسها » .

ورأى علي ان الوقت لا يتسع للمحاورة والأخذ والرد والخليفة قد يكون في حال هي أقرب للهلاك ظمأ وعطشاً ومضى الى الخليفة تتبعه ثـلاث قرب مليئة بالماء فما كاد يراها المحاصرون حتى بدأ بينهم الهمس والمشاورة وأدهشهم هذا التحدي ولكن هيبته حالت دون ان يقفوا في وجهه وفسحوا له طريق

المرور ، ولعل بإشارة من طلحة وقف أناس في وجـــه حامل الماء تمنعه من المرور فما ان رآهم عثمان حتى صاح بهم بصوت كأنه الزئير :

« ادخلوا عليه الروايا أيها الناس » .

فاستحى الناس منـــه وعز عليهم مخالفته وفتحت الصفوف على مضض ودخل الماء ، غير ان طلحة راح يفور غضباً وقـد رأى القرب تدخل الدار فكظم غيظه حتى مضى علي لشأنه .

استطاع علي ان يوصل الماء الى دار الخليفة هذه المرة ولكن هل يستطيع ذلك مرة أخرى ؟ ان علياً يعلم حق العلم ان القوم ان وقروه هذه المرة فهم سوف يحجبون عنه وقارهم له واستحياءهم منه ان هو عاودها مرة أخرى ، كما انه علم ان الماء الذي أدخله سوف لا يكفيهم اكثر من يوم ، وسيعودون الى ظمئهم وشدتهم لهذا عمد الى وسيلة تجعل الماء يدخلهم بشكل دائم إذن فـلا بـدّ من السعي الى فك هذا الحظر المائي . وفيما هو مستغرق في تفكيره إذ وافاه ابن جبار الخليفة من بني حزم يطلب المعونة لعثمان وكان قد قصد جميع صحابة رسول الله وطلحة وأزواج النبي ومنهم عائشة غـير ان الحصار كان شديداً لا يسمح حتى للشخص المجرد من كل شيء ان يدخل على عثمان وحاول علي بدافع شهامته ومروءته ان يكلم القوم فجاء اليهم وهو يعـلم ان محاولته فاشلة وأن طلبه مردود فقال لهم عسى ان يلين الكلام قلوبهم :

« يا أيها الناس ، ان الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين لا تقطعوا عن الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله » ؟

غير انهم لم يصغوا لقوله وأصروا على عنادهم وقالوا :

« لا والله ولا نعمة عين ، لا نتركه يأكل ولا يشرب » .

فيئس منهم وكان الليل قد بلغ نهايته فتركهم وانصرف .

وازداد الحصر والحظر إحكاماً وشدة وعنفاً حتى لا يستطيع طير ان ينفذ الى عثمان وبلغ من حظرهم وعنفهم ان ام حبيبة زوج الرسول حين اخذتها الرأفة على عثمان وحضرت على بغلتها تحمل اليه الماء فاجترأوا عليها وضربوا بغلتها حتى جفلت وكادت تهوى عنها لولا ان تداركها بعض القوم. ذاق عثمان مرارة هذا الحصار الذي لم تكن عاقبته غير هلاكه وهلاك ذويه ومع ذلك بقي مصرّاً على عناده لا يحيد عنه قيد شعرة .

ولو انه تهاون ولو بواحدة مما يشفي غليل هذه النفوس الثائرة إذاً لأمكن أن يكون له مجالاً لانفراج هذا الكرب الجاثم على قلبه . لو انه تخلى عن هذا الأفعوان الذي ينفث سمومه في جسم الخلافة فيهيضها ويعلّها، إذن للقي العافية ووافته السلامة . إنه مروان بن الحكم ولا أحد غير مروان الذي كان سبباً في اشعال هذه الثورة وفساد الحكم بانقياد الخليفة إليه والعمل برأيه .

ان عثمان يسهل عليه كل حل للأزمة وبأية وسيلة ما عدا تخليه عن مروان أو تفريطه بأحد أقاربه او عزله والياً من ولاته وهذه كلها سبب النقمة والاستياء والثورة .

وفيما كان علي يفكر في امر عثمان وفي هذا الحصار الضارب حول داره وما يعانيه من شدة وعناء، نهض بدافع من ضميره ومروءته ليحاول نجدة الرجل مهما كلف الأمر ، وإذا برسول من عثمان يحمل اليه رسالة يقول فيها :

« أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وارتفع أمر

الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا انهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال :

أكل السبع خير من افتراس الثعلب فاقبل عليّ أو لي
فإن كنت ماكولاً فكن انت آكلي وإلا فادركني ولمّا أمزقِ

وما كان لعلي ان يفوته مثل هذا التلميح من عثمان وكأنه أراد ان يقول بصريح العبارة ان بين من يتزعم هذه الثورات أناس يودون انتزاع الخلافة منه وانت يا علي في جملتهم فإن كانت هذه الخلافة منتزعة ولا بد فانت أحق بها من غيرك .

لقد اعمى مروان بصيرة عثمان وجعله يرى الحق باطلاً والباطل حقاً وهو الذي أوغر صدر عثمان على عليّ فراح يرى فيه غريماً ومزاحماً ومستغلاً رغم ما أبداه عليّ نحوه من التأييد له والدفاع عنه في مناسبات شتى .

غير ان هذا التلميح في رسالة عثمان أو قل هذا الاتهام الباطل الموجه اليه ما كان ليغيّض من ينبوع وفائه ومروءته بل مضى مسرعاً الى عثمان وهو يعلم خطورة الوصول اليه وقد صحب معه بعضاً من اهل بيته وفيهم الحسن والحسين وابن اخيه عبدالله بن جعفر لأنه توقع قتالاً عنيفاً سيكون بينه وبين القوم، وكيف يحجم عليّ عن هذا القتال وهو الذي وقف نفسه للجهاد في سبيل الله وهذا لون من أسمى الوانه . إذ كيف لا يكون جهاداً ان يدافع عن خليفة المؤمنين ويدرأ عنه المكروه او القتل .

بمثل هذا الخلق سار علي وابنيه الى الخليفة عثمان وأشرف على القوم ورأى الحراب والسيوف تلمع في ايديهم وعلم انه لا يدرك الخليفة إلا بعد جهاد هؤلاء الثوار فهاجمهم وكأن هيبته وهيبة ولديه قد القت في نفوسهم الرعب فأفسحوا له الطريق ودخل الدار .

ألفى علي عثمان منطوياً على نفسه قابعاً في ركن من بيته تبدو عليه الكآبة والحزن وراح يحاوره في الأحداث القائمة ويدله على حلول لها غير انه ما كان ليرضى بواحدة منها بعد ان أكد له عليّ انه مقتول لا محالة ثم عرض عليه عليّ ان يقاتل هؤلاء الثوار فأبى أيضاً هذا العرض ومما قاله :

« أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر ان لي عليه حقاً ألا يهريق في سبيلي محجمة من دم أو يهريق دمه » وألحّ علي عليه بهذا الجهاد دونه فأبى ولعله كان على يقين من وصول الأمداد التي ستكفيه شر هذه الفتنة من غير اراقة دماء .

سبطا رسول الله الحسن والحسين حارسان على باب عثمان :

وخرج علي من لدن عثمان وهو أشد ما يكون أسفاً وألماً على حال الخليفة بعد ان رفض كل عروضه غير انه ما كاد يستقر في داره حتى أخذ القلق والإشفاق على الخليفة عثمان فدعا بابنيه سبطي رسول الله وبعضاً من اهله ومواليه وزودهم بالسلاح والعتاد وقال لابنيه :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا احداً يصل اليه بمكروه »

فامتثل الشابان أمر ابيهما ومضيا وخلفهما بعض من بني هاشم ومواليهم الى

باب عثمان يقفون حائلاً منيعاً دون كل من يود ان يـداهم الدار أو تحدثه نفسه بسوء نحو الخليفة .

ويتصل هذا الخبر ببعض من صحابة رسول الله فيخجلون من أنفسهم ان يقوم علي بواجب نحو الخليفة ويتخلفوا هم عنه فبعثوا بابنائهم حتى طلحة والزبير بعث كل منهما بولده وهما في الحقيقة يريدان قتل عثمان .

ويدخل الحسن على الخليفة عثمان وفي يده سيفه وقال :

« يا أمير المؤمنين اني طوع امرك فمرني بما شئت »

ولم يكن جواب الشيخ إلا بما أجاب به أباه من قبل وقال له :

« بل اجلس يا ابن أخي في بيتك حتى ياتي الله بامره »

ولكن الحسن الذي تلقى الأمر من ابيـه بملازمة باب الخليفة كان لا بد له من تنفيذ امره وإن رفض الخليفة فلبث ملازماً باب عثمان مع اخيـه وبقية جماعته .

وراح عثمان يتأمل هؤلاء الذين وقفوا ببابه وفي كل منهم أهبة أو رغبة في الدفاع عنه ولو أدى ذلك الى مصرعه ، فأكبر هـذا النبل وإنها لتضحية جديرة بالإكبار، كيف لا! وهو يرى زهرات يانعة من شباب بني هاشم يقفون ببابه للذود عنه والدفاع عن حياته ما أنبل هـذه النفس التي دفعت بهذه الزهرات الى مناضلة قوة هائلة من الثائرين تفوق قوتهم عدة وعدداً! هيهات ان يصمدوا أمامها إلا أن يهلكوا بأقل من لمح البصر تحت وقع هذه الألوف من السيوف . وارتاحت نفسه لهذا التدبير الذي عمد إليه علي بـأن وقف ابنيه وسبطي رسول الله للدفاع عنه .

في موسم الحج :

ويحل موسم الحج وتمثلاً نفس عثمان بالذكريات الحلوة أيام كان يسير في طليعة الموكب الذي يؤم بيت الله الحرام ويسرح في تلك الرحاب الطاهرة وعليه هالة من عظمة الخلافة يحيط به الخدم والاتباع ويلتف حوله الصحب والأقارب . وها هو الموسم وليس باستطاعته ان يغادر بيته لأن الحصار محكم حوله فهو سجين داره .

وكان لا بدّ له من ان يبعث رسولاً من قبله الى الموسم وراح يتأمل في هذه النخبة الخيّرة التي في بابه فوقع نظره على عبد الله بن العباس فهتف به :

« يا عبدالله ، يا عبدالله بن عباس » .

فأسرع الرجل إليه قائلاً :

« لبيك يا أمير المؤمنين » فقال له عثمان :

« إذهب انت على الموسم يا عبدالله » .

وظن الرجل ان الخليفة يريد له خيراً لأداء فرض الله فقال :

« والله لجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إليّ من الحج » .

فقال عثمان :

« بل نشدتك الله ان تنطلق . اني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس ، فأنا خائف ان يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم في حرم الله وأمنه ، فرأيت ان اوليك » .

وزوده بكتاب يقرأه في الحجيج يستعطف فيه قلوب الناس عسى ان يوافيه من مكة من يناصره . وغادره ابن عباس ليقابل علياً ويخبره بالأمر ويستاذنه في تأدية المهمة التي ألقاها عثمان على عاتقه .

ويغادر عبدالله المدينة في جملة من الذين هبوا لزيارة بيت الله الحرام .

وكانت عائشة تتأهب للسفر أيضاً الى مكة وعلم عثمان بعزمها على السفر فأراد أن يستأخرها عساها تدفع عنه الثوار إذا حدثتهم أنفسهم بشر نحوه خصوصاً وقد بدت علامات هذا الشر تبدو في أعينهم بعد أن علموا بقرب وصول الأمداد فأراد تهدأتهم ريثما توافيه أمداده. ولم يعد بإمكان أحد تهدأتهم بعد ان اوسط اليهم كثيراً من أصحاب الجاه والنفوذ أمثال علي وابن أبي مسلمة وغيرهما . إذن فليس غير عائشة الآن تستطيع تهدأتهم لوقت معين ويتسلل من بين الجموع مروان بن الحكم مستخفياً يرافقه زيد بن ثابت ويمضيان الى أم المؤمنين عساهما يحملانهـــا على البقاء وعلى تسكين الثوار وتصغي عائشة اليهما حتى يتما حديثهما فتلتفت الى يزيد قائلة :

« وما منعك يا بن ثابت ولك الأساريف قد اقطعكها عثمان وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار » .

فأسقط في يـد زيد ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة وحاول مروان ان يتكلم فمنعته وكان ذلك منها عدم رضاها عن بقائه فنهض من مجلسها وقـد حز في نفسه حديثها وخرج وهو يتمتم بكلام غير مسموع .

ولكن عائشة أدركت ما قال فصاحت به :

« يا ابن الحكم ، أعليّ تمثل الأشعار ؟ قد والله سمعت ما قلت ، أتراني في شك من صاحبك ، والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه فألقيه في البحر الأخضر » .

وداخل نفس عائشة شيء من الرثاء على عثمان إذ لم تكن تريد أن يكون

مصيره في شيخوخته القتل وإن تكن قـــد أعانت عليه بعد أن تيقنت من انحرافه وفساد سيرته في الأمة وعاد اليها مروان يستعطفها في البقاء وقال :

« يا أم المؤمنين ، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل » فاجابت وهي تبرر قسوتها الأولى :

« أتريد أن يصنع بي كما صنع بام حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعني؟ لا والله ، ولا أعير فلست أدري الى ما يسلم أمر هؤلاء » .

ثم رحلت عن المدينة كما رحل كثير من الصحابة وأصحاب الوجاهة فيها ليبتعدوا عن الفتنة مخلفين وراءهم خليفتهم من غـير أن يجد من يستعديه او يدافع عنـه . وكيف يرجى من هؤلاء عون وكان اكثرهم يعمل في الخفاء ضد عثمان .

عائشة تسفر عن حقدها على عثمان وعلي :

سار الركب بعائشة نحو مقـام ابراهيم ومهبط الوحي وفي الطريق لقيهـا عبد الله بن عباس فرأى من اللباقة أن يتقدم لتحيتها فاقبلت عليه تؤلبه على عثمان وقالت :

« يا ابن عباس ، أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً أن تخذل عن هـذا الرجل وأن تشكك فيه ، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفعت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قـــد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر » .

وعلم ابن عباس ما ينطوي عليه عرضها فاجاب :

« يا أمة لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا الى صاحبنا » .

واصطدمت عائشة بحقيقة مرة ، وخاب أملها من نصرته لصاحبها ، إذن فابن العباس يؤكد لهـا أن ليس غير علي اذا حزب الأمر . إنهـا لا تطيق أن تسمع باسم عـلي فضلاً عن ان تراه صاحب السلطان ، إن في قلبها كرهاً له وموجدة عليه يوم لم يقف الى جانبها في حديث الإفك، ولقد زادها كرهاً له وموجدة عليه ، يوم وقف موقفاً سلبياً إبان خلافـــة أبيها أبي بكر . وخشيت ان استرسلت في الحوار مع ابن عباس ان تكشف كل هذه الحقائق من نفسها فاقصرت الحديث معه وقالت :

« إيها عنك ، اني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك » .

ومضت بركبها الى سبيلها ومضى ابن عباس لأداء مهمته .

* * *

وتأزم الوضع في المدينة بعد ان غاب عنها الى الحج كل من يرجى لنصرة او يقصد لدفع شدة في أمر عثمان وقد أصبح الثوار على أهبة لتحقيق هدفهم منه ومضى زيد بن ثابت الى قومـــه الأنصار يستعديهم على مناصرة عثمان فيجيبوه بما كانت عائشة قد أجابته :

« نريد أن نمنعه ؟ فما يمنعك يا زيد أن تذود عنه وقـــد أعطاك عشرة آلاف دينار وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها » ؟

ولم يبق في المدينة مؤازر ولا ناصر لعثمان. غير ان نبأ وصول قوات الشام قد طرق مسامع الناس فانطلقت جموعهم نحو دار عثمان تريد أن تحقق هدفها

قبل ان تهبط المدينة قوات الأمداد وانبرى من بين هـذه الجموع الملتفة حول الدار شيخ كبير وراح ينادي :

« يا عثمان ، يا عثمان بن عفان » .

ووقف عثمان بشرفة داره ليرى هذا الذي يناديه وحوله بعض من أهـله وذويه وراح يتأمل الوجهة التي أتاه منها الصوت وإذا به «نيار الاسلمي» وهو صحابي جليل جاء يتقدم هؤلاء القوم بعد ان علم من انحراف عثمان مـا علم فراح يهتف :

« اتق الله يا عثمان » فاجابه عثمان :

« فما تريد يا نيار » ؟ فيجيب :

« كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقـل هذا أمركم فاختاروا له أيها الناس » .

وما كاد الرجل يتم كلامه حتى رآه الناس يرتمي أرضاً مضرجاً بدمـه ويقضي نحبه ! أقبل الناس عليه يقلبونه فرأوه جثة هامدة .

إن سهماً قـد وافاه من الدار يصحبه حجر كبير فأرداه قتيلاً ، وأخذ الغضب من الناس كل مأخذ وزادهم منظر دمـاء القتيل حماساً فراحوا يهيبون بعثمان ان يسلمهم القاتل الغادر فأجابهم عثمان :

« لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي » .

فزادهم هـذا القول غضباً واستياءً ، وتأهب الواقفون بالباب للدفاع ولم يرهبهم حماس الثوار .

وكان مروان بن الحكم قـد قويت شوكته واعتد بنفسه وشعر أن لديه القدرة على مقاومة هؤلاء الثوار بعد ان تيقن ان الأمداد باتت على قيد ساعات

من المدينة وهذا مـــا دفعه لأن يكون أول بادىء بإراقة الدم فرمى نياراً فأرداه قتيلاً وها هو الآن يحاول الخروج لمنازلة هؤلاء الذين كثر منهم اللغط والتحدي ويحول دون غايته عثمان فيلتفت إليه مروان قائلاً :

« والله لا تقتل ولا يخلص اليك وأنا أسمع الصوت » .

وينفلت منه الى الباب وقد أشهر سيفه ويهتف :

« رجل رجل أيها الناس ، ألا من يبارز » .

وكان ابن عديس قريب رأى وسمع تحديـــه فأوعز الى فتى من رجاله وقال له :

« قم الى هذا الرجل يا غلام » .

فامتشق الفتى حسامه وتمنطق بدرعه ومشى الى مروان فمـــا كاد يرفع سيفه على الفتى حتى تدفق خلفه جموع الثوار الى الباب وانبرى اليهم الفتية التي فيه بمـا فيهم الحسن والحسين يقاتلون المهاجمين وكانت وقعة حامية جرح فيها الحسن والحسين وما منعتهما جراحاتهما عن متابعة النضال يشد أزرهما من معهما من الأهل والموالي ويصيح بهم عثمان :

« الله الله ، انتم في حل من نصرتي ، من كانت عليه طاعة فليمسك داره فإنما يريدني القوم » . ولكن أحداً لم يصغ اليه واستمروا في كفاحهم ورأى عثمان الحسن يبلي بلاء حسناً في الدفاع فخشي ان يرزأ بـه ابوه فاقترب منه عثمان وقال :

«يا ابن اخي، إن أباك الآن في كرب عظيم فأقسمت عليك لما خرجت».

فلم يصغ الفتى إليه وتابع نضاله ، كما لم يثنه جرحه عن كفاحه . وحين

رأى عثمان ان مساعيه في وقف القتال قد فشلت عاد الى غرفته واحتضن كتاب الله وراح يتلو آياته وصمد هؤلاء الفتية أمام هذه الجموع حتى شتتتها فتفرقت عن الدار مخلفة وراءها بضع أشلاء من قتلاها ودماء اريقت من جراح الفتيان .

أخو عائشة محمد بن أبي بكر رائد قتلة عثمان :

غير ان هذه الجموع عز عليها ان يغلبها على أمرها بضع فتيان من شباب بني هاشم ، كما رأت ان الخطر محدق بها ان وصلت الأمداد وبذلك يذهب ريحها هباء وتضيع مساعيها وتفقد أهدافها التي ثارت لأجلها على عثمان .

فراحت هذه الجموع تتأهب ثانية لاقتحام الدار غير انهم علموا ان في الباب ابطال من العسير الغلبة عليهم وقد يطول بينهم الكفاح وتكون قد وصلتهم الأمداد فيذهب جهادهم ادراج الرياح رغم ما ينالوه من النكال والقتل والتشريد . لهذا قررت فئة منهم على تسلق جدار الدار وفعلاً فقد تسورت عصبة من هؤلاء خلسة من دار جيرانه بني حزم الذين كانوا يمدونه بالماء حين اشتداد الحصار عليه .

ودخلت تلك العصبة الدار وقصدوه الى غرفته والمصحف في حجره لم يقطعه عن التلاوة دخول هؤلاء عليه فأوسعوه ضرباً وأذى فانطرح مغشياً عليه ودخلت نسوة الدار الحجرة على صوت الضجيج وظن هؤلاء المعتدون أن قد قضي على عثمان فغادروا الحجرة .

وأفاق عثمان من غشيته ليجد أمامه محمد بن ابي بكر وقد حضر ليتأكد من انتهاء عثمان وحين رآه معافى تقدم منه وكان واجداً عليه بسبب اغراء عامل مصر بقتله وقال له :

« أما أخزاك الله يا نعثل » ؟

فأجابه عثمان مبتسماً ابتسامة فيها الألم وفيها الاستنكار :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فأجابه ابن ابي بكر بسخرية وتهكم :

« فعلى أي دين أنت » ؟ . فيجيب عثمان :

« على دين الإسلام » . فيقول ابن ابي بكر :

« بل بدلت كتاب الله » .

ويمد عثمان يده الى المصحف الذي في حجره ويرفعه في وجه محمد ويقول:

« كتاب الله بيني وبينك » .

ويأخذ الغضب ابن ابي بكر ويتقدم من عثمان ويمسك بلحيته قائلاً :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ ومـا أغنى عنك مروان ؟ وما أغنى عنك ابن عامر؟ إنا لا يقبل منا يوم القيامة ان نقول: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل » .

وتركه عثمان ممسكاً بلحيه ولم يدفعه عنه ورشقه بنظرات ملؤها العتاب وقال له :

« يا ابن اخي، دع لحيتي فقد كان ابوك يكرمها ، ووالله لو كان لبكاني، ولساءه مكانك مني » .

فاستخزى ابن ابي بكر من قول عثمان ولاح له طيف ابيه يرميه بنظرات يستنكر منه ان يتخلى عن أدبـــه فلا يوقر الشيخوخة الضعيفة الواهية ، وأطفأت كلمة عثمان جدوة الثورة التي كانت تتقد في نفسه وأخمـدت شعلة

الحقد والموجدة عليه ، ورأى ان أباه يهيب به للدفاع عن الرجل فترك عثمان وغادر الحجرة .

والتقى محمد بأصحابه فدفعهم عن الباب بقوة واستغرب منه صحبه هذا الانقلاب المفاجيء فيه وقد كان قبل دقائق اكثرهم حماساً وأشدهم حرصاً على الفتك بعثمان لم يـأبهوا له وتألبوا عليه وغلبوه على أمره ودخلوا على الخليفة وكأنهم ذئاب كاسرة لا تعرف الرحمة ولا الشفقة الى قلبهم سبيلاً فانهالوا على هذا الشيخ المسكين الملقى أمامهم ضرباً وطعناً وجاء رجل وكأنه مـا عرف الإسلام ولا سمع بكلام الله ولكز برجله المصحف الذي في حجر عثمان فأطاح به أرضاً، وعز على عثمان أن يرى كلام الله مطروحاً في الارض فراح يمد يديه ليلتقطه فعاجلته ضربة سيف على أصابعه فبترتها فسقطت ترتعش الى جانب كتاب الله ورمى عثمان بنظرات دامعة سلاماته ورفع وجهه الى جلاديه وهو يهز في وجوههم كفه البتراء وقال بصوت تخنقه العبرات :

« أما والله .. إنها لأول يد خطت المفصل ، وكتبت آي القرآن » .

وأقبلت نائلة تحجر بين عثمان وجلاديه واحتضنت جسمه الواهي المنهوك المثخن بالجراح ورأت سيفاً يهوي عليه فدفعته بيدها فبتر أصابعها فخرجت من الغرفة تصيح وتستغيث لعل احداً من حرس الباب يدركها ويدفع هؤلاء الجلادين عن عثمان ولكن كل ذلك لم ينفع فقد قضى عثمان تحت وطأة ضربات السيوف وبـدت من هؤلاء الجلادين قسوة ووحشية لم يعرف في ذئاب الغاب لها مثيلا فهم لم يكتفوا بقتله حتى راحوا يمثلون في جثمانه .

ويخرج القاتل في نفس مطمئنة مرتاحة وكأن كفيه الاثيمتين لم تزهق أنبل روح وأطهرها ، خرج واندس في صفوف الثوار وهو ينادي :

« قتل عثمان ، مضى الرجل أيها الناس فأين طلحة بن عبيد الله » .

ولكن طلحة غاب عن هذه المعركة الدامية التي خطط لها ثم انزوى في بيته ليبعد عن نفسه الشبهات ويتصل النبأ المريع بعلي فيسرع الى دار الخليفة ويدخل غرفة الصريع فيهوله هذا المنظر البشع الذي رآه ؛ جثة هامدة عمل فيها التمثيل أقبح ما يمكن عمله ، ومصحف ملقى سالت على صفحاته دماء القتيل وأصابع مبتورة منثورة هنا وهناك ودماء تغطي ارض الغرفة، أذهل علياً هذا المشهد المؤلم وغمر قلبه أسى ولوعة وحز في نفسه ان يلقى هـــذا الشيخ البريء الطاهر القلب والنفس مثل هـذه النهاية المحزنة التي تتقطع لها نياط القلوب وخرج من الغرفة وعلى وجهه علامات الغضب الشديد وأمارات اللوعة والحزن فلقي ولديه وهما ناكسي رأسيهما أسفاً وحزناً فاهوى بكف يلطم وجه الحسن وبالأخرى يلطم وجه الحسين والتفت على أصحابه يشتمهم فلم ينطق احد منهم بكلمة وكان طلحة موجوداً فقال له :

« ما لك يا أبا الحسن تضرب وتشتم » ؟

فأجاب وما زال الغضب آخذ منه مأخذه :

« يقتل امير المؤمنين وهم الباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة » ؟

فقال طلحة :

« لو دفع مروان ما قتل » .

ولم يجب علي لأنه يعلم ان مروان وخلفه بقية من هؤلاء الامويين هم الذين جروا هذا البلاء على الخليفة وكانوا سبباً في مصرعه .

خلافة الإمام علي

الامام يزهد في الخلافة :

بعد مقتل عثمان على يد الثائرين كان من البديهي ان تكون مقاليد الحكم في أيديهم شأن كل الثورات الناجحة اليوم وكان الغافقي أمير مصر هو الذي يدير الشؤون ويؤم الناس لا طمعاً في الخلافة ولكنه لمّا يجد الشخص الكفء ليقلده اياهـا لأن الثوار عرضوا الخلافة على ابن ابي طالب فأباها وأبت نفسه الطاهرة ان يأخذ هذه الخلافة من أيدٍ ملوثة بدم الخليفة وإن أياً كان غـيره تعرض عليه في مثل هـذا الظرف لتهافت عليها وقبلها شاكراً مغتبطاً ، في حين ان علياً يغادر المدينة كل يوم هرباً من ملاحقة هؤلاء له بالبيعة .

ويجتمع الناس في المسجد للتشاور في الأمر ويسرع اليه طلحة والزبير وكل يأمل ان تكون من نصيبه ، ولكن هاتفاً صاح من طرف المسجد يقول :

« ايها الرجلان إنكما وقعتما في أمر عثمان ، فخليا اذن عن أنفسكما ، ودعا الأمر »

وخشي الرجلان ان تتفاقم النقمة عليهما وأن يلبسها النـــاس ثوب القتلة

ويطالبونها بدماء عثمان فنهض مروان الى المنبر ليبرأ نفسه ويبرر موقفه وقال:

« أما بعد أيها الناس إنا والله مـا نقول اليوم إلا ما قلناه أمس إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حق كرهنا ولايته، وكرهنا ان نقتله، وسرنا ان نكفاه، وقد كثر فيه اللجاج وأمره الى الله »

وتبعه الزبير واعتلى المنبر وقال :

« أيها الناس ، ان الله قد رضي لكم الشورى فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه »

لقد وضع الزبير في قوله هذا حداً للآراء المتضاربة والأفكار المختلفة في كل من المدينة وخارجها وراح يبدي رأيه في قضية عثمان فقال :

« أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره الى الله ، وقد احـدث احداثاً والله وليه فيما كان »

وعلى اثر هذا الاقرار من الزبير بتوسيد الخلافة لعلي وبوجود طلحة الذي لم يبد اي اعتراض على قوله مما يدل على أنهما متفقان في الرأي، راحت الناس تقصد علياً للمبايعة وعليّ يتهرب ويأبى ذلك ، وكان لا بد من تنصيب خليفة فراح الناس يجمعون شتات بعضهم ويكلفون جميع صحابة رسول الله للحضور الى المسجد للبت في الأمر .

المناداة للبيعة لعلي :

واحتشد في المسجد جمع غفير من النـــاس وفيهم الصحابة ومنهم طلحة والزبير وسعد وفيهم عدد وافر من أهل الكوفة والبصرة والمصريين .

ونهض رجل من المصريين يقول :

« يا أهل المدينة ، إنكم اهـل الشورى وانتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع »

فتعالت الهتافات من كل صوب :

« علي ، علي بن ابي طالب نحن به راضون »

ثم يتابع ذلك الرجل قوله :

« فدونكم ، وإنا لمؤجلوكم يومين اثنـين ، فوالله لأن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين »

وتحتشد في اليـوم المضروب في مسجد رسول الله جموع غفيرة وفيهم من الصحابة عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب ، ورفاعـة ، ومالك بن العجلان وكان يوم لم يكن له نظير إلا اجتماع الناس في فضاء بني بياضة في الليلة الأولى من عهد أبي بكر . وراحوا يتبادلون الآراء ويتـذاكرون في اعادة الحق الى صاحبه الى حبيب رسول الله وختنه .

وأخذت الوفود تتوالى على المسجد حتى غصت بهم رحابه الواسعة فنهض عمار بن ياسر يقول :

« أيها الناس قد سار فيكم عثمان بالأمر بما رأيتموه، وانتم اليوم على شرف من الوقوع في مثله ان لم تنظروا لأنفسكم وإن علياً أولى الناس بهـذا الأمر لفضله وسابقته »

فعلت الأصوات من كل صوب في المسجد :

« رضينا به »

ثم التفت ثانية الى هذه الحشود وقال :

« أيها الناس إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله ، وإن علياً من قد علمتم ، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به »

وعاد كل من في المسجد يرد بصوت واحد :

« قد رضينا ، وهو على ما ذكرتم وأفضل »

ومضت طوائف من هـذه الجموع وفيهم طلحة والزبير الى علي بن أبي طالب وهو معتزل في بيته لا يبرحه ، فاحاطوا بداره حتى أخرجوه والتفوا حوله يهيبون به ان يقبل بيعتهم وقالوا له :

« يا أبا الحسن ، إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهـذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله »

وخشي علي ان يكون هؤلاء القوم قد انساقوا بدافع عواطفهم اليه والعواطف سرعان ما تنقلب وهو ممن لا يقبل إلا حكم العقول والمنطق السليم لهذا قبض كفه وقال :

« لا تفعلوا ولا أفعل فإني أكون وزيراً خير من ان أكون أميراً » فهتفوا به مرة اخرى :

« أفت لنا رضى » فاجابهم وهو يصر على إبائه :

«لا حاجة لي في امركم أيها الناس . انا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به»

وبرز من بين الحاضرين احد زعماء الكوفة الأشتر مالك بن الحرث وقال بلهجة عنيفة :

« والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة »

لم يغضب علي من نبوة كلام الأشتر بل أجاب بكل هدوء ورحابة صدر:

« دعوني والتمسوا غيري أيها النـاس ، إنا مستقبلون امراً له وجوه وله ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب »

وفي الحقيقة ان علياً كان يرفض الخلافة من اعماقـه لأن نفسه تعاف حب السيادة والسيطرة والسلطان وتأنف ما تضفي الخلافة على صاحبها من الأبهة والعظمة وفرض الطاعة على الناس له لأن هذا كله من متع الدنيا ونفس علي أزهد ما تكون في الدنيا وزخرفها ومتاعها .

وهو إن أراد الخلافة وتقبلها فمن زاوية واحدة لا غيرهي انه يريد خدمة المسلمين وانصافهم وإشاعة العدالة بينهم وإعزاز دين الله هذا من جهـــة ومن جهة أخرى فهو يرى غيره لا يقوم بأداء هذه الواجبات حق أدائها .

وهذا ما دعى الأشتر لأن يكبر في علي هـــذه النفس الأبية المترفعة عما يتهافت عليه كثير من الناس ويضحون بكل غـال وثمين في سبيل الحصول عليه او الوصول اليه .

ولهـــذا ايضاً نرى الأشتر يتوسل الى علي ان يقبل رجاء هؤلاء الجماهير حفظاً على وحدة كلمتهم وخوفاً من قيام فتنة جديدة فيقول له :

« ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى مـا حدث في الاسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ »

وساد الموقف صمت وراحت انظار النـاس تتجه الى أملهم المنشود ، الى غـايتهم المرجوة الى منقذهم من كربهم وشدتهم ليقول كلمته وبعـــد لأي أجاب :

« قد اجبتكم لما أرى منكم ، ألا فاعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما

اعلم ، وإن تركتموني فإنما انا كأحدكم، بل انا اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه امركم »

فصاح الجميع :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك »

لو ان غير علي في هذا الموقف لسرعان ما يمد يده للمبايعة ولكن علياً يأباها ان تكون مبايعة خاصة بل أرادها ان تكون مبايعة عامة وفي مسجد رسول الله لهذا نراه يقول :

« إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد ، فإن بيعتي لا تكون خفية ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين جميعاً وفي ملأ وجماعة »

وكان موعدهم الغد في مسجد رسول الله وتفرقوا عنه .

وما كاد يشرق صباح يوم الجمعة حتى كانت الحشود تحف بداره حتى خرج فالتفوا حوله ومشوا به الى المسجد في عاصفة من التهليل والتكبير وما ان وصلوه حتى صعد علي المنبر ورحاب المسجد تضيق بهذه الجماهير وحين رفع صوته انصت الجميع وقال :

« يا أيها الناس ، عن ملأ وإذن ؟ ان هذا امركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمّرتم ، وقد افترقنا بالأمس على امر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فما اجد على احد »

فراح الهتاف يعلو من كل هذه الجموع وبجواب واحد :

« نعم ، نحن على ما فارقناك بالأمس »

ويتابع علي قوله :

« ألا إني كنت كارهاً لأمركم ، فأبيتم إلا ان اكون عليكم ، رضيتم ؟ »

فاجاب الجميع بصوت واحد :

« نبايعك على كتاب الله » ويقول علي :

« اللهم اشهد عليهم »

وتتدافع الجموع كالسيل الزاخر نحو المنبر لتبايعه وفي طليعتهم كبار المهاجرين والانصار .

وهكذا تمت البيعة لهذا الشيخ الجليل سليل البيت النبوي الطاهر على كره منه وارادة شاملة جامعة للمسلمين اجمعين .

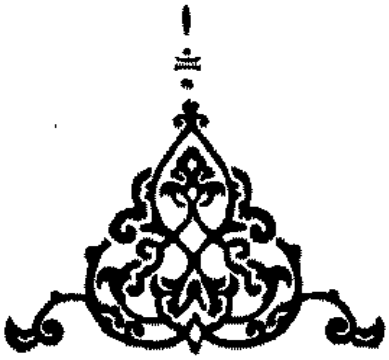

العهد الزاهر

خلّف عثمان تراثاً كبيراً من التخلف والانحطاط والأمور المعقدة الشائكة. فهناك فئة من السادة المترفين ، يعيشون في سعة وأمن ، بما أفاء عليهم عثمان من الهبات والأعطيات وبما منحهم من كروم النخل والعنب والزروع كابن ثابت وغيره .

وهناك بقية الشعب تعاني العوز والفقر والحرمان وفي ذلك هدر لنصوص الشريعة الغراء التي نادت بالعدل والمساواة في الحقوق والواجبات .

وهناك ولاة خرج بهم لين عثمان وتهاونه معهم عن طور الحق والعدالة وأبطرتهم النعمة فراحوا يترفون ويبذخون لأن أموال الخزينة تحت تصرفهم ينفقونها وفق اهوائهم وما يتطلبه بذخهم وتنعمهم لا يحاسبهم على تصرفهم هذا أحد .

وهناك عقائد انحرف بها ممتنوقوها عن نهج الدين القويم وخالفوا تعاليم الشرع ونصوص القرآن ومعالم السنة .

أمام هذا الفيض الزاخر من المشكلات وقف علي بعقله الكبير وعزمه المتين وحزمه الصادق يسيّر الأمور ويدير الشؤون .

ان اول عمل قام به علي هو ان قسم الفيء بين الناس بالتساوي وكان عمر بن الخطاب قد قسمه وفق منزلة المرء ومرتبته وقدره وسار عثمان على غراره .

ولكن عليـــاً لا يعرف له دستوراً غير الشريعة التي ساوت بين الكبير والصغير رأى ان يزيل هذا الفارق الذي أقامه عمر وساوى الناس في الفيء، خصوصاً وإن ظروف الناس ومـا يعانون من عوز وفقر قد الجأته لأن يلغي تدبير عمر في الفيء ويقسمه بين الناس بالتساوي .

عمد الى ذلك وهو على يقين من ان عمله هذا سوف يثير حوله موجة من الغضب والاستياء من هؤلاء السادة ، ولكن علياً لا يهمه حين يرضي ربـــه وضميره ان تغضب الدنيا بأسرها عليه .

دستور الامام :

ان علياً قد رسم لنفسه دستوراً ينهجه خلال حكمه ، وهو من صميم تعاليم القرآن والسنة لا يحيد عنه قيد شعرة رضي النـــاس أم غضبوا ، أبقوه في الخلافة أم خلعوه منها ، فهو لم يقبل الخلافة ليعتز بسلطانها بل قبلها لينشر تعاليم القرآن بين النـــاس ويشيع فيهم الحق والعدالة فاستمع اليه في دستوره الجديد :

« أيها الناس ، إنما انا رجل منكم ، لي ما لكم ، وعليّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم مـا أمرت به ، إلا ان كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت الله ، فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء وفرق في البلدان لرددته ، فإن في العـــدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق ، فالجور عليه أضيق .

أيها الناس: ألا يقولن رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الانهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة ـ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله؛ وثوابه وأجره على الله، ألا وأيما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، والمتقين عند الله أحسن الجزاء، فإذا كان الغد، فاغدوا علينا إن شاء، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من اهل العطاء»

لقد اسخط علي ولا شك اولئك الذين كان لهم أفضلية في الفيء، ولو ان هؤلاء كانوا من الايمان بالله والعقيدة الإسلامية ما لعلي بن ابي طالب إذا لكفاهم قناعة وعرضاً عما حجبه عنهم علي بهذا المتاع المثالي النبيل الذي أشار اليه في قوله: «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من اصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على سواه بصحبته، **فان الفضل غداً عند الله وثوابه واجره على الله**»

فلماذا سخط هؤلاء على ابن ابي طالب فأين اذاً فيهم الايمان الصحيح والعقيدة السليمة لكي لا يؤثروا ثواب الله واجره في الآخرة على كل ما في الدنيا من متاع. ولكنهم اناس كان يعوزهم صحة الايمان وسلامة العقيدة فاستهوتهم الحياة الدنيا فراحوا يطلبون متاعها.

ثم راح يصادر كل ما اقطعه عثمان لأقاربه وذويه من ملك وأراض وما

أخذ من بيت المال بغيرحق، نزع كل هذا من هؤلاء وراح يوزعه على المسلمين بالسوية لا فرق بين سيد ومسود ولا نبيل او وضيع ولا عربي او أعجمي .

وجاء أناس ممن كانت لهم ميزة على من سواهم وفضل على غيرهم في العطاء يعترضون عليه في هذا الاسلوب الجديد من الحكم فأجاب :

« أتأمرونني ان أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ والله مـا أطور به ما سمر سمير ، وما أم نجم في السماء نجماً لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله، ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة »

ومن العجيب الغريب ان نرى صحابيين من صحابة رسول الله كانا قد قاتلا معه وجـاهدا في سبيل نشر دعوة الإسـلام وإعلاء كلمة الله تدفعهما مطامعهما لأن يأتيا علياً يطلبان اليه ان يعدل عما هو بسبيله من تسوية الناس بالقسمة ويلبسان هـذا الطلب ثوب النصح ويخلعان عليه ملاءة الحرص على الخلافة من تصدع وهي في عهدها الاول الجديد .

غير ان علياً ما كان ليخفى عنه ما رميا اليه كما لم يغب عنه ما هما عليه وما ألفاه من حياة اليسر والنعمة والترف فنراه يجيبهما :

« أما مـا ذكرتما من أمر الاسوة يا إخوتاه ، فإن ذلك امر لم أحكم انا فيه برأيي ، ولا وليته هوى مني ، بل وجدت ، انا وانتما، ما جاء به رسول الله قد فرغ منه ، فلم احتج إليكما فيما فرغ من قسمه ، وأمضى فيه حكمه ، فليس لكما والله ولا لغيركما عندي في هذا عتبي »

ثم ودعهما حين خروجهما بهذه الحكمة :

« ألا رحم الله امرءاً ، رأى حقـاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فرده ، وكان عوناً بالحق على صاحبه »

* * *

هل اقنع علي هذين الصحابيين بحجته تلك وهي نابعـــة من صميم تعاليم القرآن ؟

كلا ، وكيف يقنع بالمساواة من ذاق حـــلاوة التفاضل ، وكيف يرضى بالعدالة من استهوته الأثرة والأنانية وحب الذات ، لهـذا نراهما وقد خرجا من لدنه يجتمان الى الكبراء والسادة يؤلبانهم عليه مدعيين انه خـالف نهج عمر في التقسيم وكأن رأي عمر آية من آيات الله المـــنزلة أو قول من أقوال رسول الله أكد العمل به والسير على نهجـه فوجب على الإمام اتباعه والسير عليه فإذا خرج عنه فهو منحرف غير معتدل ولا منصف !!

وهذه مئـــات من قريش الحانقة الحاقدة التي انجرفت مع التيار الزاخر الذي تجمع حول علي فحملته على قبول البيعة وبايعته وبايعت قريش في جملة من بايع نرى بعضاً منها تندم على البيعة وتروح تؤلب وتحرض على الإمام .

ماذا يريدهؤلاء السادة من الإمام؟ أيريدون منه ان يفتح بيت مال المسلمين على مصراعيه ويوزع مال المسلمين عليهم ليترفوا ويبذخوا حتى يرضوا عنه ؟ أيريدون ان يقطعهم الاراضي والضيـاع ومزارع النخيل ليتنعموا ويسعدوا حتى يرضوا عنه ؟

إن علياً قبل ان يقبل بالبيعة والنـاس في إلحاح عليه بقبولها قال : « ألا فاعلموا أني إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم »

أما كان جديرٍبهم ان يفهموا ما أراد الإمام بقوله هذا ؟ ماذا يعلم الإمام؟ إنه يعلم ان الناس قد انحرفوا عن نهج الدين القويم فهو يريد ان يردهم اليه بالنصح والإرشاد اولاً فإن أبوا فبالسيف .

إنه يعلم ان الولاة والحكام قد التوت بهم السبل عن سبيل الحق والعدالة وراحوا يحكمون بغير ما امر الله ، وهو يريد ان يردهم الى سبيل الحق والعدل والى ان يحكموا بما أمر الله بالنصح والإرشاد فإن أبوا فسيعمل سيفه في رقابهم .

إن لهم في هذا الإمام الهاشمي ابن عم رسول الله وختنه اسوة حسنة فإن رأوه يترف فليترفوا ، وإن رأوه يسكن القصور فليسكنوها ، وإن رأوه يأكل الطيبات من الطعام فليأكلوها وإن رأوه يلبس الفاخر من الثياب فليلبسوها . فما بالهم إذن يحملون على هذا الامام الطاهر النقي العادل ؟!

بعد ان أشاع الامام العدالة في المدينة وأنصف الناس بتوزيع الفيء وتوزيع ما انتزعه من اراضٍ وأموال من أولئك الذين اقطعهم اياها عثمان من آله وذويه وحاشيته وعم الرخاء جميع فئات الناس من متوسطي الحال والمعوزين والفقراء .

بعد هذا الاجراء العادل انصرف الى الخارج ليطهره من أولئك الولاة الذين عاثوا فساداً في البلاد ، وكان لا يخفي ما بنفسه من اقصاء العمال لأنه يريد ان يبين للناس وجهة نظره في كل ما يعمد اليه من عمل وان أعماله كلها منبثقة من الشريعة الغراء ومبنية على توطيد دعائم الحق وتتبع خطى رسول الله في جميع غاياته ومراميه .

ويسري نبأ اقصاء الولاة بين الناس فيسارع اليه رجل له كلمته ومكانته

في جماعة المسلمين غير انه لم يكن قد بايع الإمـام وما هو من الراضين ضمناً عن بيعته وها هو يأتيه اليوم وقد وشحته ملاءة من الرياء والنفـاق ليظهر أمام الامام مظهر الناصح الذي يهمه توطيد عهده وإشاعة الأمن والإطمئنان في البلاد .

انه المغيرة بن شعبة جاءه ليصرفه عن رأيه في تغيير الولاة فلنستمع اليه يخاطب الامام :

« اني مشير عليك ان ترسـل الى عمال عثمان بعهودهم اقرِرْ معاوية على عمله ، اقرر ابن عامر على عمله ، واقرر العمال على اعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ويهدئون البلاد ، ويسكتون الناس »

فيجيبه الإمام برأي حازم لا تردد فيه ولا نقض :

« والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ، ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يُولّى »

وحين رأى المغيرة إصرار الإمـام على صرف العمال أراد ان يحمله على تثبيت واحد منهم تميل نفسه اليه ويخلص له فقال :

« فإن ابيت فانزع من شئت واقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو في اهـل الشام يُسمع منه ولك حجة في اثباته ، إذ كان عمر بن الخطاب قـد ولاه » . فيجيب علي :

« لا والله لا استعمل معاوية يومين ابداً »

ويعود المغيرة ثانية الى الإمـام ليظهر ندمه على رأيه السابق ويؤيد علياً في إجراءاته بصدد عماله لينـال لديه بذلك حظوة ثم يخرج ويلتقي بعبد الله ابن عباس وكان عائداً من موسم الحج الذي أوفده اليه عثمان ويحيي أحدهما

الآخر وينصرف كل الى شأنه ويدخل ابن العبـــاس على الإمام وقد علم ان ابن شعبه كان عنـــده ويسأله عما فعل ولا يخفي الإمام عن عبد الله مطلب المغيرة ويقر ابن العباس رأيه بشأن معاوية ولكن عليا يأبى ذلك .

ما كان ابن عباس وهو الهاشمي وابن عم الإمام ليرتأي رأيا يخالفه ولكنه كان حريصاً على توطيد إمامة ابن عمـه وهو يعلم ان معاوية قوي مكين في الشام فهو يريد تأجيل عزله ريثما تستقر الأمور في بقيـة البلاد ويكون فيها ولاة مخلصون يُعتمد عليهم في كل مهمة وقمع كل تمرد .

إن الطريق القويم الذي ينهجه الإمام ما كان ليحوجه الى رأي ابن عباس أو نصح المغيرة فإن نهجـه الذي التزمه نابع من صميم القرآن وسنة الرسول ، خصوصاً فيما يتعلق بإدارة دفـة الأمور وقد وقف على كل أوضاع البـــلاد وعرف كنهها وسبر غورها ولا تخفى عليه خافية في كل بقعة من بلاد الإسلام قاصيها ودانيها ويعرف عللها وأمراضها التي أودت بحياة عثمان ، لهـذا اعد لها الدواء الناجع فهو يعمل على استئصال شأفتها ، والطبيب المـاهر الناجح لا تأخذه شفقة ولا رحمـة في استئصال مرض من جسم مريض فإذا لان أو رحم فقد أودى الداء بالمريض ما من ذلك بد .

إن في بقاء ولاة عثمان شراً مستطيراً على الأمة ولكن بعض الشر أهون من بعض ، فكل شر يهون أمام هـذا الداهية الأموي الحاقد معاوية الذي اتخذ من نفسه قيصراً من قياصرة الروم او الفرس يحيط نفسه بهالة كبيرة من العظمة والأبهة ، ويسكن القصور المزخرفة المنمقة ويتخذ الحرس والعبيد والموالي ، وينفق بغير حساب من بيت مال المسلمين ، وقد دعم مركزه بكثرة ما يغدق من العطايا والهبات والناس عبيد المال وبه استعبد معاوية الناس .

وهذا ما دفع علياً لأن يقول للمغيرة حين طلب استبقاء معاوية :

« لا والله ، لا استعمل معاوية يومين ابداً »

لم يخف علىمعاوية الداهية ما عزم عليه الإمام من إقصاء الولاة وهو يركز عليه بشكل خـاص ، لأن لمعـــاوية عيوناً في المدينة تراقب كل حركة فيها وتوافيه بما يحدث ، بل قل ان المغيرة هو الذي لفت نظره الى اصرار الإمام على عزله .

إن معاوية قد احتاط لهذا اليوم من زمن بعيد فهو حين حضر مؤتمر الولاة — على حد التعبير العصري — الذي دعا اليه عثمان يوم تأزم الوضع اجتمع به وعرض ان يمده بجنديحميه فأبى عثمان وصور لهمعاوية الخطر المحدق به وقال:

« فاجعل لي الطلب بدمك إن قتلت »

فأجابه عثمان :

« هذه لك »

وها هو اليوم يشهر هـذا السلاح « المطالبة بدم عثمان » ويجعل منه درءاً لتمرده على الخلافة وعصيانه لأوامر الخليفة .

وها هو ينشر ثوب عثمان الدامي في المسجد وسلاّماته الجـافة وشعيرات من لحيته قد جمـد عليها الدم وجف، يستثير بها عواطف أهل الشام ويهيب بهم لأن ينهضوا للثأر له والانتقام من قتلته والمحرضين عليه .

وهذا رسول منه يصل المدينة ويسيرفي دروبها وهو رافع يداً فيها صحيفة مكتوب عليها « من معاوية الى علي » . إنه والحق يقال عنوان يثير الغرابة والدهشة ويلفت اليه الأنظار ويجعلها تهمس وتتحدث وتؤول وتستنتج . انه

عنوان جاف خالٍ من كل لياقة وكياسة ، إنه عنوان يدل على ان المرسل لا يحمل الى المرسل اليه أي شعور باحترام او تقدير .

ويدخل الرسول على الإمام ويأخذ منه الصحيفة ويفتحها فإذا هي بيضاء وليس فيها حرف واحد ويسأل عليّ الرسول :

« ما وراءك يا رجل ؟ » فيجيب بعد ان يستأمن علياً على نفسه :

« ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود » ويستغرب علي ويسأل: ممن ؟ ويجيب الرسول :

«من خيط نفسك» ولم يُغضب علياً مثل هذا الاتهام وراح يترقب مزيداً من الايضاح فتابع الرجل قوله :

« وتركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق »

ويسأل عليّ في استغراب ودهشة :

« مني يطلبون دم عثمان ؟! » ويجيب الرجل :

« نعم »

فقال علي : « الست موتوراً كثرة عثمان ؟ اللهم اني ابرأ اليـــك من دم عثمان » وأشار للرجل ان يخرج بعد ان آمنه على نفسه .

وهذه عائشة يطرق مسامعها نبـــأ مبايعة الإمـــام وهي عائدة من الحج فكأنما نزلت بها فاجعة مفاجئة فتنادي بالركب « ردوني .. ردوني .. »

واستدار الركب ومضت القـــافلة في عكس اتجاهها تقصد مكة وهتفت عائشة :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الامر لابن ابي طالب » وتقصد انطباق السماء على الارض

ثم اردفت تقول :

« قتل عثمان والله مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » !!

ونحن لا ندري كيف يجتمع في نفس عائشة هذا التناقض الغريب العجيب إنها كانت بالأمس القريب غاضبة حاقدة على عثمان حتى دفعها غضبها وحقدها عليه ان تقول :

« والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه فألقيه في البحر الأخضر »

أليس في هذا القول تحريض سافر لقتل عثمان يصدر عن أم المؤمنين زوج الرسول وناقلة حديثه لكأني بمن أعملوا سيوفهم في عثمان قد اقتنعوا برأي أم المؤمنين في وجوب قتل عثمان ما دامت هي تقسم ببارئها «والذي نفسي بيده» انها تود قتله غرقاً في البحر الأخضر .

ممن ستطالب بدم عثمان؟ فإذا نسيت هي نفسها وغاب عنها تحريضها ذاك مشفوعاً بالقسم ، فهل تنسى أخاها الذي تسلق على عثمان الدار ودخل عليه حجرته ورآه قد افاق من غشيته التي سببها له أولئك الذين أشبعوه لكزاً بالسيوف وضرباً بالحديد . وهو إذ رآه ما زال حياً أمسك بلحيته وراح يكيل السباب والشتائم وما ردعه عن فعله إلا ان ذكره عثمان بأبيه فخجل واستخذى وترك عثمان نادماً آسفاً ، وماذا يجدي الندم وهؤلاء رفاقه الذين أججوا نفوسهم نار النقمة على عثمان يدخلون عليه ويحاول ان يردهم عنه بعد

ندمه فلا يستطيع ويدخل هؤلاء الرفاق رفاق التسلق رفاق محمد بن ابي بكر أخي عائشة فيجهزون على عثمان ويمثلون به أبشع تمثيل .

ان شيئاً من هـــذا لن يخطر ببالها بطلب دم عثمان بل ستطلبه من ذلك الذي تمتلىء نفسه مخافة من الله ، من ذلك التقي الورع والغيور على مصالح المؤمنين ، من ذلك الذي جاهد في سبيل عثمان انبل جهاد وأفضله وأعنفه ، من ذلك الذي دفع بفلذتي كبده ليدافعا عن عثمان ويقفا أمام حشود كبيرة هائجة ثائرة ، بعث بهما ووقفا في بابـــه يناضلان هـذه الجموع وكادا يلقيان مصرعهما لولا بطولة فذة فيهما ، وحسن بلاء ، وحسبهما دماء اريقت منهما على باب بيت عثمان . فممن كانت تطالب عائشة بـــدم سبطي زوجهـا الرسول وريحانتيه وسيدي شباب أهل الجنة في الجنة بحديث زوجها الرسول ؟

نعم ممن كانت تطالب بدم هذين الشابين لو صرعتهما هذه الحشود الغضبى على باب عثمان ؟

يحق اذن لعائشة ان تطالب بدم عثمان من أبيهما علي بن أبي طالب بعد هذا الجهاد وهذه التضحية الفذة في نوعها من اجل الدفاع عن حياة عثمان .

ولماذا كل هذه الحملة وهذا الحقد على الامام من أم المؤمنين ؟!

ألأنه كان غريم ابيها في الخلافة كما هي تعتقد ؟! أم لموقفه منها في حديث الإفك ولم يكن له في هذا الحديث خوض انما هو رأي أدلى به للرسول على هذه الصورة :

« ودعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعلياً بن أبي طالب عليهما السلام حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهـــله . أما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي علم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال:

يا رسول الله هم اهلك ولا نعلم إلا خيراً، فأما علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة »[1] .

إن علياً لم يكن مفترياً لحديث الافك ولا خاض فيه مع الخائضين . إنما أشار على الرسول بالخلع والزواج حين استشاره وحين استلبث الوحي على الرسول .

ولماذا اذاً تستشيط عائشة غضباً من بيعة علي وقد حمله على قبولها حشود هائلة أحاطت بداره وأخرجته منها لتبايعه بعد رفضه مراراً وأصروا إلا ان يبايعوه فلنستمع اليه يقيّم السلطان الذي يتهافت عليه الناس .

« قال عبد الله بن العباس : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت لا قيمة لها فقال عليه السلام : والله لهي أحب اليّ من إمرتكم ، إلا ان أقيم حقاً او أدفع باطلاً »

ماذا عن معاوية :

لماذا عمد معاوية الى التمرد والعصيان وإثارة الفتنة بنشر ثوب عثمان على منبر مسجد دمشق ؟ إنه بالإضافة الى انه أموي حاقد عريق في أمويته الحاقدة على بني هاشم فقد ورده كتاب من عمرو بن العاص هذا نصه :

« من عمرو بن العاص الى معاوية بن أبي سفيان :

« أما بعد ، ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها »

وما كان ابن العاص كاذباً في وشايته هذه فإن علياً وقد صادر كل ما

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج ١٨ ص ٢١ طبع دار مكتبة الحياة – بيروت .

أقطعه عثمان لأقاربه وذويه وحاشيته في المدينة مـــا كان ليترك معاوية في قصوره الشاهقة وترفه وبذخه وتصرفه بخزينة المسلمين يصرف منها بدون حساب ! وها هو يرسل اليه الرسالة التالية :

« من عبد الله علي أمير المؤمنين الى معاوية بن أبي سفيان :

أما بعد ، فقد علمت إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا دفع له ، والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل ، فبايع من قبلك ، وأقبل اليّ في وفد من أصحابك »

فض معاوية الرسالة وقرأ ما فيها فراح يبتسم ابتسامة ماكرة فيها معاني الاستهزاء وعدم المبالاة فتركها جانبـاً وتناول رسالة ابن العاص وكأنه أراد ان يتحقق منها ما يضمره علي نحوه وما يرمي اليه في رسالته بالتوجه اليه .

لهذا رأيناه كيف راح يحرك عواطف النـــاس بنشر ثوب عثمان وآثاره الدامية ليؤلب الناس على علي ويحرضهم عليه باسم المطالبة بدم عثمان .

متاعب الامام :

إن مما يؤسف له حقاً ان نرى فئة من خيرة صحابة رسول الله قد ندت بهم أهوائهم ومطـامعهم وغاياتهم عن طريقه القويم ونهجـــه السليم فراحوا يناوئون ابن عمه علياً الذي ما كاد يتسلم زمام الحكم حتى راح ينهج نهج رسول الله ويقتفي أثره ويسير سيره في احقـاق الحق وإشاعة العدل ونشر المساواة بين جميع الطبقات ، غير ان هذا اللون من الحكم قد حدّ من أطماع تلك الفئة وأطاح بزعاماتهم وهدر سيادتهم فلم يعـــد يسود غير القانون الإلهي ، ولا كلمة نافذة لغير كلام الله وسنة رسوله .

وقفت تلك الفئة تحد من نشاط الإمام بمـــا تحدثه من فتن وما تخلفه من

اضطرابات في البلاد وما تحدثه من تفرقة بين صفوف المسلمين ولم تترك له مجالاً لتعميم مزيد من الاصلاحات التي بدأ فيها منذ توليه الخلافة .

فهذه عائشة أم المؤمنين في مكة تمزق الستر الكثيف الذي أضفاه عليها القرآن « وقرن في بيوتكن » تخرج من حذرها لتؤلب النـــاس على الإمام وتحرضهم عليه حتى وجدت فيهم كثيراً ممن يصغي اليها ويؤمن بدعوتها ، ولمَ لا ؟ وهي زوج الرسول والراوية الاولى لأحاديثه وأم المؤمنين

وفي المدينـــة شيخان جليلان من صحابة الرسول ومن خلفهما عناصر من قريش يأخذان على عاتقهما مناوأة العهـــد ومعارضته والشغب عليه ثم هما يزدادان تصلباً متأثرين بالدعوة التي انطلقت من مكة .

وتألف حزب من بني تيم قوامـه طلحه ابن عم الصديق وعائشة وأختها أسماء وزوج أسماء وابنها الزبير وحفيدهما عبـد الله ، وقد ألف بين هؤلاء الحقد على علي والمصلحة الذاتية الشخصية .

أما عائشة فقـد أسلفنا سبب حقدها على الإمـــام في قصة الافك وفي معارضته لخلافة أبيها ، وأما طلحة فقد كان طموحاً للحكم ورأيناه كيف كان يؤلب النـاس على عثمان ، وكيف جمع النـاس حوله بالعطايا والهبات ليغريهم بالوثبـــة عليه ، وكيف أحبط الامـــام مسعاه في كسر الخزينـة وتوزيع ما فيها على المحتاجين ممـا جعل الحشود التي حول طلحة تتفرق عنه لتنال نصيبها من التوزيع حتى لم يبق عنـده فرد واحد ، وارتبط بهم الزبير بإغراء وإلحاح من ولده عبد الله وفي نفسه رواسب حقد قديم وحوافز حسد جديد وفيه يقول الامام علي :

« ما زال الزبير منا اهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله »

وهكذا سار هذان الشيخان من غـــير روية ولا تفكير بل بدافع الحقد والحسد يحاولان تقويض الخلافة من تحت الامام، وقد أعمت الغايات والاهواء بصائرهما فراحا يعارضان الامام في كل عمل إصلاحي قام به .

وقويت شوكة عائشة في مكة وأصبح لها أنصار وأعوان وقامت تحشدات لمناهضة الخليفة بالقوة في المدينة .

ويرى علي تفاقم الوضع وانتشار الفتن هنا وهناك خصوصاً بعد ان أرسل عامليه سهل بن حنيف الى الشام وعمارة بن شهاب الى الكوفة وعادا مردودين من قبل أهلها الثائرة على الامام . فيستدعي طلحة والزبير لاستشارتهما وأخذ رأيهما في هذا الوضع القـــائم وهو يعلم من امرهما ما يعـلم غير انه أراد من استشارتهما ان يلقي على عاتقهما تبعة هذه الأحداث وليحملهما المسؤولية عن هذه الفتن أمام الله والضمير . غير ان الشيخين لم يجيرا جواباً وما وسعهما غـــير ان يقولا :

« فأذن لنا ان نخرج من المدينة فإما ان نكابر وإما ان تدعنا »

وبذلك كشفا عن نواياهما السيئة .

غير ان ما في نفس علي من الحلم ومـا يتصف به من الأناة والحكمة جعلته يتمهل على المتمردين والعصاة والناقمين من غير ان يكافحهم بالشدة والعنف .

وقد أرسل كتاباً الى أبي موسى الأشعري والى معـاوية ، أما أبو موسى فقد ارسل رداً يعلن فيه طاعة أهل الكوفة .

أما معاوية فقـــد انتظر ليرى رجوح الكفة فيميل الى حيث ترجح ثم ارسل رده الذي أسلفنا ذكره حين تعرضنا للبحث في امر معاوية .

أما طلحة فلم يعد يرضيه من عداء علي هذه الاثارات الكلامية فلا بد ان

يتبعها عمل بجدي وهاهي الظروف لهذا العمل مواتية في مكة حيث عائشة هناك قـــد أثرت دعوتها وتمت حركتها ، وتأبى له نفسه ان يلحق بركبها فاراً من المدينة فلا بد اذاً من وسيلة اخرى يخرج بها لا تحطمن قدره. ونهض يقصد علياً يصحبه حليفه الزبير يطلب منه الاذن في الخروج قال :

« إيذن لنا يا أمير المؤمنين ، نريد العمرة »

ولم يكن ليخفى على الامام ما يرميان اليه فيقول :

« والله ما العمرة تريدان » فيجيبان :

« والله ما نريد إلا العمرة » فيصارحهما الامام :

« بل الغدر ونكث العهد »

وراحا يؤكدان قولهما بالأيمان المغلظة وهما ضمناً يعلمان أن قسمهما حانث ولكن هذه الايمان هي الوسيلة التي يستطيعان بها ان ينالا إذن الامام بالسفر وكان قد منعه عن أي كان .

فقال لهما الامام ونفسه ما زالت في شك وريبة منهما :

« فأعيدا اليّ البيعة ثانية »

فبايعاه دون تردد مبايعة مشفوعة بالأيمان وإعطاء العهود والمواثيق ومضيا الى مكة معقد رجائهما ومحط آمالهما في تحقيق اهدافهما ومطامعهما .

* * *

كانت المدينة تنتظر مـــا سيعمد اليه الامام تجاه المتمرد في الشام وأعد للأمر عدته ، غـــير ان علياً وهو اليقظ الساهر على مصلحة رعيته كانت لا تفوته شاردة ولا واردة في كل الاقاليم الاسلامية ولاتخفى عليه اية حركة تجري

فيها. فوافاه وهو بصدد اعداد العدة لغزو الشام نبأ يفيد ان تحشدات كبيرة في مكة تقصد المدينة لغزوها .

فها هي أم سلمة التي بقيت على ولائها لعلي تأتيه قادمة من مكة بعد ان أعياها رد عائشة عما عزمت عليه وتقول له والدموع فيض عينيها :

« يا أمير المؤمنين ، لولا ان أعصي الله عز وجل ، وأنك لا تقبله مني لخرجت معك ، فهذا ابني عمر ، وإنه والله لأعز عليّ من نفسي ، يخرج معك ، فيشهد مشاهدك ، فاستوص به خيراً يا أمير المؤمنين »

* * *

جيش عائشة يتجه نحو البصرة :

تجاوب مع عائشة كثير من المسلمين في غزوها المدينة لأنها ألبست دعوتها هذه انها تريد أخذ الثأر من قتلة عثمان وعلى الأخص أولئك الثوار الذين قضوا عليه وما زالوا مرابطين في المدينة وما حولها .

غير ان بعض العقلاء يرون ان في غزو المدينة خطراً كبيراً ربما سبب لهم الفشل وذلك بسبب قوة الثوار هناك من جهة وان علياً سوف لا يقف مكتوف اليدين إزاء حرب تدور في المدينة وما حولها وان يرى الدماء تسفك ولا يتدخل في قمعها أو القضاء عليها من جهة اخرى وبذلك يستتب الأمر لعلي .

وكان على رأس هذه الحشود الصحابيان طلحة والزبير وقد رأيا عدم الذهاب الى المدينة خوفاً من الفشل . ولا بد من إقناع عائشة في ذلك وابداء وجهة نظرهما فيما يجب ان يكون . وتجمع دار عائشة أصحاب الفتنة وما من رجل تخلف عن هذه الندوة ليحقق كلٌ مطلباً وغاية يهدف اليها .

وقد أجمع هؤلاء المجتمعون على ان يقصدوا الشام وهناك تتحد قواتهم مع قوة معاوية وحينئذٍ يكون لهم الغلبة والنصر ويقضون على الحكم المكروه .

ويتبنى الزبير هذا الرأي وراح يؤيده بحماس ويقول :

« نعم الى الشام ، فيها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتى نجتمع يولنا معاوية »

وينتظر الزبير رأي طلحة في هذا الصدد ويستبق يعلى بن منية فيقول : « أيها الشيخان قدرا قبل ان ترحلا ، إن معاوية قد سبقكم الى الشام وفيها الجماعة ، وانتم تقدمون عليه غداً في فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم ، أفرأيتم إن دفعكم عن الشام أو قال : أجعلها شورى فتقاتلونه ، أم تجعلونها شورى فتخرجا منها »

وأخيراً يشير عليهم ابن عامر ان يذهبوا الى البصرة وان له فيها صحابة اوفياء ، فارتاحت لهذا الرأي نفوس الجميع ثم يردف ابن عامر قائلاً مخاطباً طلحة والزبير :

« اذهبا الى البصرة ايها الشيخان فإن غلبتم علياً فلكم الشام ، وإن غلبكم علي كان معاوية لكم جنة [1] »

أبرموا الامر على ذلك ووافقت عائشة وسار جيشها وهي في هودجها على الجمل يقصدون البصرة وفي هذه الرحلة كان نصيبهم الفشل الذريع في وقعة الجمل المشهورة التي انتصر فيها علي على جيش عائشة وابن عمها طلحة والزبير وقتل فيها طلحة .

---

(١) وقاية وحمى .

ومما يؤثر في هذه الوقعة ان علياً خطب لما سارت عائشة من مكة ومعها طلحة والزبير يريدون البصرة فقال :

« ايها الناس إن عائشة سارت الى البصرة ومعها طلحة والزبير وكل منهما يرى الامر له دون صاحبه ، أمـا طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختنها ، والله لو ظفروا بما أرادوا — ولن ينالوا ذلك ابداً — ليضربنّ احدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد . والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ، ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه ، حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، اي والله ليُقتلن ثلثهم ، وليهربن ثلثهم ، وليتوبن ثلثهم ، وإنهـا التي نبحها كلاب الحوأب ، وإنها ليعلمان انهما مخطئان ، ورب عالم قتله جهله ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالي ولقريش! أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنهم مفتونين ، وما لنا الى عائشة من ذنب إلا ان أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرنّ الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجها »

مقابلة علي للزبير بدء الموقعة :

نادى علي الزبير في بدء المعركة فوافاه وحين تقابلا قال علي :

« إنما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله ﷺ أتذكر يوم رآك وانت معتنقي فقـال لك : أتحبه ؟ قلت : وما لي لا احبه وهو اخي وابن خالي ؟ فقال : أما إنك ستحاربه وانت ظالم له .

فاسترجع الزبير وقال : « ذكرتني ما أنسانيه الدهر »

ورجع الى صفوفه فقال له ابنه عبد الله : لقد رجعت الينا بغير الوجه الذي فارقتنا به ! فقال : أذكرني علي حديثاً أنسانيه الدهر فلا احاربه ابداً ، وإني لراجع وتاركم منذ اليوم . فقال له عبد الله : ما أراك إلا جبنت عن سيوف بني عبد المطلب ، إنها لسيوف حداد ، تحملها فتية أنجاد، فقال الزبير : ويلك أتهيجني على حربه ؟ أما إني قد حلفت ألا احاربه . قال عبد الله : كفّر عن يمينك ، لا تتحدث نساء قريش انك جبنت وما كنت جباناً، فقال الزبير : غلامي مكحولٌ حرّ كفارة عن يميني ، ثم أنصل سنان رمحه ، وحمل على عسكر علي برمح لا سنان له فقال علي : افرجوا له فإنه مُحرَجٌ ثم عاد الى اصحابه ، ثم حمل ثانية ثم ثالثة ، ثم قال لابنه : أجبناً ويلك ترى ؟! فقال له : لقد اعذرت »

رأي الامام في طلحة بعد مصرعه :

بعد هزيمة اهل البصرة في محاربة الإمام ركب عليه السلام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء وكانت ما تزال عنده ومضى يستعرض القتلى فمر بقاضي البصرة « كعب بن سور » القاضي وهو قتيل فقال :

اجلسوه ، فأجلس فقال له :

« ويل امك كعب بن سور ، لقد كان لك علم لو نفعك ، ولكن الشيطان اضلك فأزلك ، فعجلك الى النار ، ارسلوه »

ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلاً ، وثمة روايتان فيما قاله له، الرواية الاولى لأبي مخنف قوله عليه السلام :

« قال : اجلسوه ، فأجلس فقال له : ويل امك طلحة ، لقد كان لك

قدم لو نفعك ، ولكن الشيطان اضلك فأزلك فعجلك الى النار »

أما الرواية الثانية فإنه قال له حين أجلسوه :

« اعزز عليّ أبا محمد ان أراك مصفراً ، تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي ، أبعد جهادك في الله ، وذبك عن رسول الله ﷺ »

فجاء الى الإمام رجل فقال :

« أشهد يا أمير المؤمنين ، لقد مررت عليه بعد ان أصابه السهم ، وهو صريع فصاح بي فقال :

مِن أصحاب مَن أنت ؟ فقلت : من اصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فقال : أمدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين فمددت اليه يدي فبايعني لك فقال علي :

« أبى الله ان يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتي في عنقه »

غرّني غيري :

روى أبو الأسود الدؤلي قال :

« لما ظهر علي عليه السلام يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة في ناس من المهاجرين والانصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرة مـا فيه قال : غرّني غيري ، مراراً ثم نظر الى المـال ، وصعّد فيه بصره وصوّب وقـــال : اقسموه بين اصحابي خمسمائة خمسمائة فقسم بينهم فلا والذي بعث محمـداً بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً ، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره وكان ستة آلاف الف درهم والناس اثني عشر ألفاً »

وروى حبة العرني قال: « قسم عليّ عليه السلام بيت مال البصرة على اصحابه

خمسمائة خمسمائة ، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم ، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة فقال : كنت شاهداً معك بقلبي وإن غاب عنك جسمي ، فأعطني من الفيء شيئاً، فدفع اليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم ولم يصب شيئاً!!

الله أكبر ! أمير المؤمنين يسوي نفسه بفرد من افراد جنوده فيأخذ من الفيء مثل ما يأخذ !! ثم هو يؤثر فرداً آخر من الرعية على نفسه فيعطيه ما أصابه ، إنها والله لمثالية خارقة في العدالة ونكران الذات .

موقعة الجمل

ولا بد لنا من ان نذكر بشيء يسير من التفصيل أحداث وقعة الجمل .
بعد ان خطب الإمام خطبته المشهورة صفحة /١٨٢/ حين علم بمسير عائشة ومن معها من شخصيات اسلامية بارزة في جملتهم طلحة والزبير ويعلى بن أمية الذي تبرع بستمائة الف درهم وستمائة بعير يجهز بها الحملة .

حينئذن جهز علي جيشاً وخرج لملاقتهم حتى وصل الى « ذي قار » ولما كان علي حريص على ان لا تراق دمـــاء المسلمين من جهة كما عز عليه من جهة اخرى ان يحارب عائشة زوج ابن عمـه رسول الله ﷺ ومن ورائها طلحة والزبير اللذين رغم ما عرف عنهما من الغدر به والنكث لعهوده فهو ما يزال يحمل لهما ولاءً ووقاراً لما لهما من قدمة وبلاء ابان ظهور الإسلام وفي عهـــد الرسول ﷺ . لهـذا أرسل اليهم رجلاً من صحابة الرسول عرف برجاحة العقل وسداد الرأي هوالقعقاع بن عمر واجتمع القعقاع بعائشة وطلحة والزبين وقال لثلاثتهم :

« إن علياً بن أبي طالب يحرص كل الحرص على الثـأر لعثمان والبحث عن قتلته ولكن ذلك لن يتحقق ابداً إلا بعد ان يستتب الأمن »

أو أنه قـــال : « إن ذلك الامر دواؤه التسكين » ثم طلب من الثلاثة مبايعة ابن ابي طالب والحيلولة دون فرقة المسلمين .

فقالت له عائشة :

« إرجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الامر » .

وعاد القعقاع الى علي وأخبره بمـا أجابت به عائشة فانشرح صدر الإمام لهذا الجواب وعلم ان عائشة قد اعتدلت في موقفها منه ولعل سر هذا الاعتدال راجع الى قصة مـاء «الحوأب» وهي ان عائشة حينما كانت على رأس جيشها متوجهة الى البصرة مرت ببقعة فيها نبع ماء فسمعت عائشة نباح كلاب فسألت:

« أي ماء هذا ؟ » قيل لها :

« ماء الحوأب »

ويقول « العرني » وهو دليـل جيشها الى الطريق وهو الذي أجابها على سؤالها ذاك :

«ما كادت عائشة تعرف اننا بماء الحوأب حتى صرخت بأعلى صوتها وبكت ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم صاحت في طلحة والزبير :

« ردوني ... ردوني ... أنا والله صـاحبة كلاب الحوأب .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. إني لهي لقـد سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول وعنده بعض نسائه وكنت بينهن :

(ليت شعري ! أيتكنّ تنبحها كلاب الحوأب ؟)

وكان الرسول ﷺ يتوضأ والى جانبـــه عائشة وبعض نسائه فالتفت إليهن وقال ذلك الحديث الشريف وفهمن منـه ان واحدة منهن سوف تنبح عليها كلاب الحوأب لقيامها بعمل لا يرضى عنه الله تعالى .

غير ان ابن اختها عبد الله بن الزبير أدرك الفشل الذريع الذي سيلقاه أولئك الذين أخذوا على عاتقهم تقويض حكم الإمام فاتخذوا من عائشة لواءً لتحشداتهم وجموعهم وجيوشهم .

فماذا عسى ان يصنع ليثبت خالته أم المؤمنين ويبقيها بين الصفوف ؟ لم يكن ثمة من وسيلة إلا ان يسفّه العرني في دلالته وينسب اليه الغفلة وأقسم لها وأقاها بشهود من الاعراب أقسموا أمامها ان الماء ليس بماء الحوأب الذي باتت تخشاه فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام .

إن عائشة باتت في شك مما أكده لها عبد الله لهذا تراها أجابت ابن القعقاع إجابة سر لها الإمام وأوشك الفريقان على الصلح ولكن نشب القتال فجأة بين الفريقين ولم تتفق روايات المؤرخين على الاسباب التي أدت الى اندلاع نار الحرب ولقد حاول الامام في بدء المعركة ان يوقفها ويخمد نارها فنادى علي الزبير وحادثه الحديث الذي ذكرناه في الصفحة /١٨٢/ وكان مع الزبير طلحة وقد استهل خطابه للاثنين معاً بقوله :

« لقد اعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » ولم يقل أحد منهما شيئاً . فأضاف علي :

« ألم أكن أخاكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرّم دماءكما ، فهل من حدث أحلّ لكما دمي ؟ »

فقال طلحة :

« ألّبت الناس على عثمان »

فابتدره علي بهذه الآية :

«يومئذ يوفيهم الله دينَـهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين» ثم أضاف علي في صوت قوي :

« يا طلحة تطلب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان »

* * *

واشتد القتال بين الفريقين ، وقد وصف عبد الله بن سنان الكاهلي المعركة فقال :

« ترامينا بالنبل حتى فنيت ، وتطاعنا بالرماح حتى تشبكت في صدورنا، وصدورهم حتى لو سُيِّرت عليها الخيل لسارت »

وذكر أحد المؤرخين ان هودج عائشة أصبح مثل القنفذ من كثرة ما رشق به من سهام وكان الناس يدافعون عن الجمل دفاع المستميت فصاح علي بن أبي طالب :

« اعقروا الجمل فإنه إن عُقر تفرقوا »

قال الشعبي :

« أخذ الخطام [1] يوم الجمل سبعون رجلاً من قريش كلهم يُقتل وهو آخذ بالخطام »

ولما اشتد القتال ورأت عائشة ان كفة علي هي الراجحة وكانت تنتظر منه الصلح طلبت من كعب بن سور ان يأخذ مصحفها يناشد الله عز وجل في دمائهم ولكنه قتل قبل ان يؤدي رسالته .

ولما سقط جمل عائشة أنزلوا هودجها في رفق ووضعوه على الارض .

---

(١) الحبل الذي يقاد به البعير .

وأراد محمد بن أبي بكر ان يطمئن على أختـه عائشه وكان يحارب مع جيش عليّ فلما أدخل يده في الهودج سألته عائشة :

« من أنت ؟ » فقال لها :

« أخوك محمد » فأجابته غاضبة :

« بل مُذمّم » وابتسم محمد وسألها :

« هل أصابك شيء ؟ » فقالت له :

« ما شأنك بذلك »

غير ان احد السفلة وكان اسمه « ابن ضبيعة الحجاشر » قال لعائشة :

« ما أرى إلا حميراء » وتفوه ببعض الألفاظ النابية .

ولكن علياً بن ابي طالب لم يقف من عائشة موقف الظـــافر المنتصر من خصمه بل وقف منها موقفاً كان غـاية في النبل والشرف والمروءة فقد ذهب الى هودج عائشة وقال لها في أدب واحترام :

« كيف انت يا أمي ؟ » فأجابت :

« بخير والحمد لله » فقال لها علي :

« يغفر الله لك » وأجابت : « ولك »

وأمر علي بإنزال عائشة ضيفة على اكبر بيت من بيوت البصرة وهو بيت عبد الله بن خلف الخزاعي وصحبها اخوها محمد وعمار بن ياسر الى هناك .

ثم أمر علي بجلد اولئك الذين تجرأوا على سب ام المؤمنين عائشة .

وحين أرادت عائشة العودة الى مكة أمر علي بأن يُجهز ركبها بكل ما يلزمها من ركب او زاد او متاع وأمر لها بمبلغ كبير من المال واختار لهـــا اربعين امرأة من أشرف نساء البصرة ليرافقنها حتى مكة .

وكان خروجها من البصرة يوم السبت غرة رجب سنة ٣٦ هجرية واجتمع لوداعها جموع كثيرة أمام دار عبـــد الله بن خلف الخزاعي وكان علي بن ابي طالب في جملتهم فالتفتت عائشة الى هذه الجموع المحتشدة وقالت لهم :

« يا بني تعتّب بعضنا على بعض استبطاءً واستزادةً ، فلا يعتدّ احـــد منكم بشيء يبلغه عنا .. فوالله مـــا كان بيني وبين عليّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، ووالله إنه عندي لمن الأخيار »

وقال عليٌّ للناس :

« يا أيها الناس .. صدَقَت والله وبرّت.. ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة »

وهكذا انتهت حرب الجمـــل بالصلح المخلص والتراضي القلبي وعادت وحدة المسلمين الى ما كانت عليه ، وهذا ما كان يهدف إليه الإمام . ولم يبق ما يعكر الجو سوى ذلك الداهية الرابض في الشام .

وقعة صفين

كان معاوية يطمع في الاستقلال بالشام والاردن وفلسطين وكان علي قد أعد العدة لمحاربته في الشام لولا ان وافاه النبأ من مكة بأن حشوداً كبيرة تقودها عائشة وطلحة والزبير لغزو المدينة فعدل حينئذن عن غزوة الشام ولاحق حشود مكة التي غيرت وجهتها عن المدينة الى البصرة الى ان انتهى الأمر بانتصاره عليها في وقعة الجمل كما أسلفنا . وبعد ان استتب له الأمن في المدينة ومكة والبصرة والكوفة ، اتجه بجيشه الى الشام ليخضع معاوية . وأمر علي بعمل جسر على نهر الفرات ليعبر عليه جيشه الى منطقة الرقة .

وكان جيش معاوية يحتل المكان الذي به الماء في تلك المنطقة . واحتاج جنود علي الى الماء فأرسل رسولاً الى معاوية ليقول له :

« إن الذي جئنا له غير الماء . ولو سبقناك اليه لم نمنعك عنه »

وقال معاوية للرسول :

« ارجع فقل لعلي ولا قطرةً حتى تموت عطشاً » !!

فاضطر علي الى محاربة فيلق جيش معاوية الذي كان يمنع الماء فهزمهم شر هزيمة .

وسمح لهم علي بأن يشربوا فما كان أنبله من محارب وما كان أرحمه من عدو وخصم .

واستمرت معركةصفين مائة وعشرة ايام وكان عدد الوقعات بين جماعات المحاربين قد ناف على التسعين .

أما المعركة الفاصلة فقد استمرت اسبوعين كاملين وسميت بوقعة الهرير .

ولما كان علي في كل حروبه يعمل جاهداً لحقن دماء المسلمين لهذا فقد اعتلى فوق تلٍ وصاح بأعلى صوته :

« يا معاوية علام يقتتل الناس ؟ ابرز إليّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب »

ومال عمرو بن العاص على اذن معاوية وقال له :

« أنصفك الرجل يا معاوية »

وضحك معاوية ضحكة مكر وخبث وقال لعمرو: طمعت فيها يا عمرو؟!

وهو يريد ان عمراً يطمع في ان يخلفه لأن علياً كان يريد قتله . وعمرو هذا متلهف موتور على منصب الولاية منذ ان عزله عثمان عن ولاية مصر فلمَ لا يطمع في ولاية الشام بعد ان يهلك معاوية ؟!

وانتهت معركة صفين بالخدعة المشهورة التي سماها المورخون بـ (خدعة المصاحف) لقد وضع جنود معاوية المصاحف على أسنة الرماح والسيوف وطالبوا بإيقاف الحرب وتحكيم كتاب الله .

ولم تكن لتنطلي هذه الخدعة على علي بن ابي طالب وأراد الاستمرار بالقتال ولكن معظم جيش علي كان قد سئم الحرب فقبلوا تحكيم كتاب الله

فصدع علي لإرادتهم وحدث بعـــد ذلك ان اختار معاوية عمرو بن العاص واختاروا لعلي أبا موسى الأشعري وانتهى التحكيم الى ما هو معروف من خديعـــة أبي موسى الاشعري التي أعقبها استقلال معاوية بالشام فعاد علي الى الكوفة .

ولكن فئة غير يسيرة من الناس لم ترق لهم هـــذه النتيجة فشقوا عصا الطاعة على عليّ وهذه الفئة هي تلك الطائفة التي سميت فيما بعد «بالخوارج» وقد حاول الإمام نصحهم وعدولهم عن تمردهم بالحسنى ولكنهم أبوا إلا تمادياً في ضلالهم وراحوا يريقون دماء كثير ممن هم اتباع علي فاضطر الى محاربتهم وهزمهم في موقعة « النهروان » وقتل منهم عدداً كثيراً .

نهاية الإمام

تألفت جماعة من الخوارج أطلقت على معاوية وعمرو بن العاص وعلي بن ابي طالب « أئمة الضلال » لأنهم تسببوا في اراقة دماء الألوف من المسلمين .

وقرروا فيما بينهم على قتل هؤلاء الثلاثة وأجمعوا الرأي على ان يكون قتلهم في ليلة واحدة .

فوكلوا الى (البرك بن عبيدالله) قتل معاوية. ووكلوا الى (عمرو بن بكر) قتل عمرو بن العاص ووكلوا الى (عبد الرحمن بن ملجم) قتل علي .

وقد شاءت المقادير ان يتخلف عمرو بن العاص عن الصلاة بالناس فأمر (خارجة بن حذافة) رئيس الشرطة ان ينوب عنه في الصلاة فضربه القاتل بسيفه وهو يحسبه عمرو بن العاص فأرداه قتيلاً وقبض على القاتل وضرب عنقه ونجا عمرو بن العاص .

وكذلك نجا معاوية لأن (البرك بن عبد الله) ضربه بسيفه ضربة غير قاتلة وقبض عليه .

ويقول (ابو الفرج الاصبهاني) إن البرك قال لمعاوية : « إن لك عندي بشارة » فسأله معاوية : ما هي ؟ فقال له :

« إن علياً يقتل في هذه الليلة ، فاحبسني عندك فإن قتل فأنت وما تراه في أمري . وإن لم يقتل اعطيتك العهود والمواثيق أن أمضي فأقتله ثم أعود فاضع يدي في يديك حتى تحكم فيّ بما تراه »

ويؤكد ابو الفرج ان معاوية حبس البرك ، فلما أتاه ان علياً قد قتل خلّى سبيله »

ونجح الآثم ابن ملجم فقد انتهز فرصة سجود الإمام وهو يصلي الفجر في يوم الجمعة وضربه بسيفه المسموم على رأسه ضربة قوية .

وحُمل الإمام الى داره ثم دعا ولديه الحسن والحسين وأملى عليهما وصيته وانتقل الى جنان ربه بعد يومين من إصابته وكان ذلك ليلة الأحد الموافق الحادي والعشرين من شهر رمضان عام اربعين للهجرة .

وكانت مدة خلافته خمس سنوات تقريباً .

* * *

لقد برزت في أحداث عثمان فضائل للإمام هي على جانب كبير من العظمة والسمو والنبل فبالاضافة الى النضال المتواصل المتعب الذي بذله في سبيل الدرء عن عثمان وبالاضافة الى العقل الراجح والرأي السديد الذي كان يمهدبهما الأمور لعثمان فإنه قدم فلذتي كبده الحسن والحسين ضحيتين رخيصتين في سبيل الذود عن عثمان وحفظ حياة عثمان وهذا غاية في النبل والمروءة والوفاء .

ولقد برزت عفة علي وزهده في الحكم والسلطان ورأينا كيف رفض الخلافة وتهرب منها لولا ان حمله الجمهور حملاً اليها وغلبه وقهره على قبولها

ولقد برزت عدالته واستقامته حين ولي الخلافة وكيف انه سار في نفس

الدرب الذي سار عليه الرسول ونهج عين نهجه لا يخرج عن تعاليم القرآن ولا عن سنن الرسول قيد شعرة .

ولقد برزت رحمته غب وقعة الجمل وكيف عامل أعداءه وخصومه بكل رحمة وشفقة .

ولقد برزت مروءته في وقعة صفين حين استولى على المـاء فلم يقطعه عن جيش معاوية وكان معاوية قد قطعهعنه حين سبقه بالاستيلاء على الماء وهدده بالموت عطشاً .

خذل الله كل من ناوأه او حقد عليه او حمل له العداء .

وصلى الله عليه وعلى ولديه سبطي رسول الله وسيدي شباب أهل الجنة في الجنة وعلى بقية العترة الطيبة الطاهرة ما دامت السموات والأرضين آمين.

شذرات[1] من كلام الإمام

قال عليه السلام عند عزمه على السفر الى الشام[2] :

« اللَّهُمَّ أعوذُ بكَ من وَعْثاءِ السَّفرِ ، وكآبةِ المُنْقَلَبِ ، وسُوءِ المَنْظَرِ في الأَهْلِ والمالِ والوَلَدِ ، اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ ، وأَنتَ الخليفَةُ في الأَهْلِ ، ولا يَجْمَعُهما غيرُك ، لِأَنَّ المُسْتَخْلَفَ لا يَكُونُ مُستَصْحَباً ، والمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُستَخْلَفاً » .

وقال عليه السلام يعظ :

« عِبادَ اللهِ ، زِنوا أَنْفُسَكُمْ من قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا ، وَحاسِبُوها مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحاسَبُوا ، وتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الخِناقِ ، وانقادُوا قَبْلَ

(١) شذرات جمع شذرة : وهي القطعة من الذهب .

(٢) دعاء مستحب في كل سفر .

عُنْفِ ٱلسِّياقِ ، وٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ » .

وقال في أهل البيت :

« نَحْنُ شَجَرَةُ ٱلنُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَعَادِنُ ٱلْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ الْحِكَمِ ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ ٱلسَّطْوَةَ » .

ومن خطبه عليه السلام ذكر فيها ملك الموت وتوفية النفس وعجز الخلق عن وصف الله :

« هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً ؟ أَم هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحداً ؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا ؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ ! »

وقال عليه السلام يعظ :

« أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ ، بِتَقْوَى اللهِ ٱلَّتِي هِيَ الزَّادُ ، وَبِهَا الْمَعَادُ ،

زادٌ مُبْلِغٌ ، ومَعَادٌ مُنْجِحٌ ، دَعَا إِلَيْها أَسْمَعُ داعٍ ، ووَعَاها خَيْرُ وَاعٍ فَأَسْمَعَ دَاعِيها ، وفَازَ وَاعيها » .

وقال عليه السلام يوبخ البخلاء بالمال والنفس :

« فَلَا أَمْوَالُ بَذَلتموها لِلّذي رَزَقَها ، وَلَا أَنفُسَ خَاطَرْتُمْ بِها لِلَّذي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ على عِبَادِهِ ، وَلَا تَكْرِمُونَ اللهَ في عِبادِهِ ، فاعْتَبِروا بِنُزولِكمْ مَنازِلَ مَنْ كانَ قَبْلَكمْ وانقطاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوانِكُمْ » .

ومن خطبة له عليه السلام يعظم الله سبحانه ، ويذكر القرآن ، والنبي ، ويعظ الناس :

عظمة الله تعالى

وَٱنْقَادَتْ لَهُ الدُّنيا والْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا ، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّماوَاتُ والْأَرَضونَ مَقَالِيدَها ، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالغُدُوِّ والْآصَالِ الْأَشْجارُ النَّاضِرَةُ ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِها ٱلنِّيرانَ المضيئَةَ ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ ٱلثِّمارُ ٱلْيَانِعَةُ .

القـــرآن

وَكِتابُ اللهِ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ ، نَاطِقٌ لَا يَعْيَـــى لِسَانُهُ ، وبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أرْكَانُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أعْوانُهُ .

رسول الله

أرْسَلَهُ عَلَى حِـــينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ ، فَقَفّى بِهِ الرُّسُلَ وَخَتَمَ بِهِ الوَحْيَ ، فَجاهَدَ فِي اللهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ ، والْعَادِلِينَ بِهِ .

الدنيـــا

وَإِنَّمَا الدُّنيا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى ، لا يُبْصِرُ مِمّا وَرَاءَهَا شَيْئاً ، وَالْبَصِيرُ ، يَنْفُذُها بَصَرُهُ ، وَيَعْلَمُ أنَّ الدّارَ وَرَاءَهَا ، فالْبَصيرُ منها شَاخِصٌ ، والْأَعْمَى إلَيْهَـــا شَاخِصٌ ، والْبَصِيرُ مِنْها مُتَزَوِّدٌ ، والْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ .

عظة النـــاس

وَاعْلَموا أنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إلّا وَيَكادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْـــهُ

وَيَمَلَهُ إِلّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ ، كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللهِ ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ . قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ ، لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ ، وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ .

ومن حكمه عليه السلام :

« مَا رَأَيْتُ ظَالِماً أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ ، نَفَسٌ دَائِمٌ ، وَقَلْبٌ هَائِمٌ ، وَحُزْنٌ لَازِمٌ ، مُغْتَاظٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، يَخِيلُ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ » .

« أدْنَى الإِنْكارِ أَنْ تَلْقَى أَهْلَ ٱلْمَعَاصِي بوجوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ » .

« أَسْوَأُ ٱلنَّاسِ حالاً مَنْ لَمْ يَثِقْ بِأَحَدٍ لِسُوءِ ظَنِّهِ ، ولَمْ يَثِقْ بِهِ أَحَدٌ لِسُوءِ فِعْلِهِ » .

« مِسْكِينُ ابْنُ آدم ، مَكْتُومُ الأَجَلِ ، مَكْنُونُ ٱلْعِلَلِ ، مَحْفُوظُ ٱلْعَمَلِ ، تُؤْلِمُهُ ٱلْبَقَّةُ ، وتَقْتُلُهُ ٱلشَّرْقَةُ ، وتُنْتِنُهُ ٱلْعَرْقَةُ » .

قالَ الرَّاغِبُ الأَصْبَهانِيُّ في الجُزْءِ الأَوَّلِ مِنْ « مُحاضَراتِ الأُدَبَاءِ » ص ٢١٦ طَبْعَة ١٩٦١ : رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : مَا أَحْسَنْتُ لِأَحَدٍ قَطُّ ، ولا أَسَأْتُ إِلى أَحَدٍ ، فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ تَعجُّباً ! فَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالى : (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها » .

وقال عليه السلام في الاستسقاء :

« اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ والأَكْنانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ ٱلْبَهَائِمِ وَالوِلْدانِ ، راغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ ، وراجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ ، وَخائِفِينَ مِنْ عَذابِكَ ونِقْمَتِكَ . اللَّهُمَّ فاسْقِنا غَيْثَكَ

وَلَا تَجْعَلْنا مِنَ ٱلْقانِطينَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بالسِّنينَ ، (ولا تُؤَاخِذْنا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهاءُ مِنّا) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ حِين أَلْجَأَتْنا الْمَضايِقُ الوَعْرَةُ ، وأَجاءَتْنا المَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَتْنا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وتَلاحَمَتْ عَلَيْنَا ٱلْفِتَنُ الْمُسْتَصْعِبَةُ ، اللَّهُمَّ إِنّا نَسْأَلُكَ أَلّا تَرُدَّنا خَائِبِينَ ، ولا تَقْلِبْنَا واجِمِينَ ، وَلَا تُخاطِبْنا بِذُنوبِنا ، وَلا تُقايِسْنا بِأَعْمَالِنَا ، اللَّهُمَّ ٱنْسُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، واسْقِنا سُقيا نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعشِبَةً ، تُنْبِتُ بِها ما قَدْ فَاتَ ، وتُحْيِي بِهَا ما قَدْ مَاتَ نافِعَةَ الْحَيَا ، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنى ، تُرْوِي بِهَا ٱلْقِيعانَ ، وتُسيلُ ٱلْبُطْنانَ ، وتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجارَ ، وتُرْخِصُ الْأَسْعارَ ، إِنّكَ عَلى ما تَشَاءُ قَدِيرٌ » .

وقال في الحث على التآلف :

« لِيَتأَسَّ صَغيرُكُمْ بِكَبيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبيرُكُمْ بِصَغيرِكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا كَجُفاةِ الْجاهِلِيَّةِ : لا في الدّينِ يَتَفَقَّهُونَ ولا عَنِ اللهِ يَعْقِلونَ » .

وقال عليه السلام في هوان الدنيا :

« أَلَا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبونَ فيها ، وأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وتُرْضيكُمْ ، لَيْسَتْ بِدارِكُمْ ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ ، الَّذي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ ، أَلَا وَإِنَّها لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ ، ولا تَبْقَوْنَ عَلَيْها ، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْها فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّها ، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذيرِها ، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْويفِها ، وَسَابِقُوا فِيها إلى الدّارِ التي دُعِيتُمْ إِلَيْها ، وانْصَرِفوا بِقلوبِكُمْ عَنْها » .

وقال في لزوم الطاعة :

« يَا أَيُّها النّاسُ (طُوبى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيوبِ النَّاسِ) وَطُوبى لمن لَزِمَ بَيْتَهُ ، وَأَكَلَ قُوتَهُ ، واشْتَغَلَ بطاعَةِ رَبِّهِ ، (وَبَكى عَلى خَطيئَتِهِ) فَكانَ مِنْ نَفْسِهِ في شُغُلٍ ، والنّاسُ مِنْه في رَاحَةٍ » .

من وصيته بالتقوى :

« أُوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوى الله الّذي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ،

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ ، فَلَوْ أَنَّ أَحداً يَجِدُ إِلى الْبَقاءِ سُلَّماً ، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبيلاً ، لَكَانَ ذٰلِكَ سُلَيْمانُ بْنُ داوودَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، الَّذي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الجِنِّ والأِنْسِ مَعَ النُبُوَّةِ ، وعَظِيمِ الزُّلفَةِ ، فَلَمّا اسْتَوْفىٰ طُعْمَتَهُ ، واسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رَمَتْـــهُ قِسِيُّ الْفَناءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيارُ مِنْهُ خالِيَةً ، والْمَساكِنُ مُعَطَّلَةً ، وَوَرِثَها قَوْمٌ آخَرونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ في الْقُرُونِ السّالِفَةِ لَعِبْرَةٌ »

قال عليه السلام يصف خلق الله للجرادة :

« وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ في الْجَرادَةِ ، إِذْ خَلَقَ لَها عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ ، وَأَسْرَجَ لها حَدَقَتَيْنِ قَمْراوَيْنِ ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَها الْحِسَّ الْقَوِيَّ ، ونابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، ومِنْجَلَيْنِ بِهِما تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهـــا الزُّرّاعُ في زَرْعِهِـــمْ ، وَلَا يستطِيعُونَ ذَبَّها ، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِها ، وتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِها ، وخَلْقُها جُلُّهُ لا يَكُونُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
سبب موالاة الشيعة لأهل البيت	٩
إيمان الشيعه وعقيدتهم	١٠
لماذا توالي الشيعة أهل البيت	١٠
هل ثمة تناقض بين فاطمة وعلي في فدك	١١
الحجج الدامغة : من مبررات ولاء الشيعة لأهل البيت	١٥
الحسن والحسين هما ابنا الرسول حقيقة	١٦
عاطفة الأبوة	١٨
نشأة الحسنين	١٩
فاطمة الزهراء : مولدها وصفاتها	٢١
الزواج من علي	٢١
الجهاز المتواضع	٢٣

الموضوع	الصفحة
زهد الإمام في الدنيا	٢٧
تقوى الإمام وعبادته	٢٩
غزارة علم الإمام	٣٣
حلم الامام وصبره : انتزاع الخلافة منة	٣٥
أبو بكر عند الإمام علي	٤٢
علي يرفض الخلافة	٤٧
موقف الزهراء من الخلافة	٤٨
نبل الغاية	٤٩
عود على بدء ، محاولة يائسة من أبي سفيان	٥٠
وأخيراً بايع علي أبا بكر	٥٣
شجاعة الإمام ونضاله	٦١
مصرع عثمان	٧٣
مروان بن الحكم علة فساد الحكم في عهد عثمان	٧٥
مروان هو صهر الخليفة	٧٦
عثمان وعلي	٨١
وفد الكوفة على عثمان للتظلم	٨٤
علي يقيم الحد على الوليد بن عقبة أخي عثمان	٨٥
استياء وسخط عام على الخليفة عثمان	٨٧
أحداث الكوفة والبصرة	٨٩

الموضوع	الصفحة
ماذا في البصرة ؟	٩٠
عبد الله بن سبأ والمذهب الجديد	٩٣
المذهب السبأي الجديد	٩٤
نقمة عائشة على عثمان	١٠٠
بوادر الثورة على عثمان	١٠١
مروان بن الحكم زيت نار الثورة ثانية	١١٦
« لا أصلي بكم والإمام محصور »	١٣٧
الثوار يقطعون الماء عن عثمان	١٣٨
سبطا رسول الله حارسان على باب عثمان	١٤٢
في موسم الحج	١٤٤
عائشة تسفر عن حقدها على عثمان وعلي	١٤٦
أخو عائشة محمد بن أبي بكر رائد قتلة عثمان	١٥٠
خلافة الإمام علي « الإمام يزهد في الخلافة	١٥٥
المناداة للبيعة لعلي	١٥٦
العهد الزاهر	١٦٣
دستور الإمام	١٦٤
ماذا عن معاوية	١٧٥
متاعب الإمام	١٧٦
جيش عائشة يتجه نحو البصرة	١٨٠

الموضوع	الصفحة
مقابلة علي للزبير بدء الموقعة	١٨٢
رأي الإمام في طلحة بعد مصرعه	١٨٣
غرّي غيري	١٨٤
موقعة الجمل	١٨٧
وقعة صفين	١٩٣
نهاية الإمام	١٩٧
شذرات من كلام الإمام	٢٠١

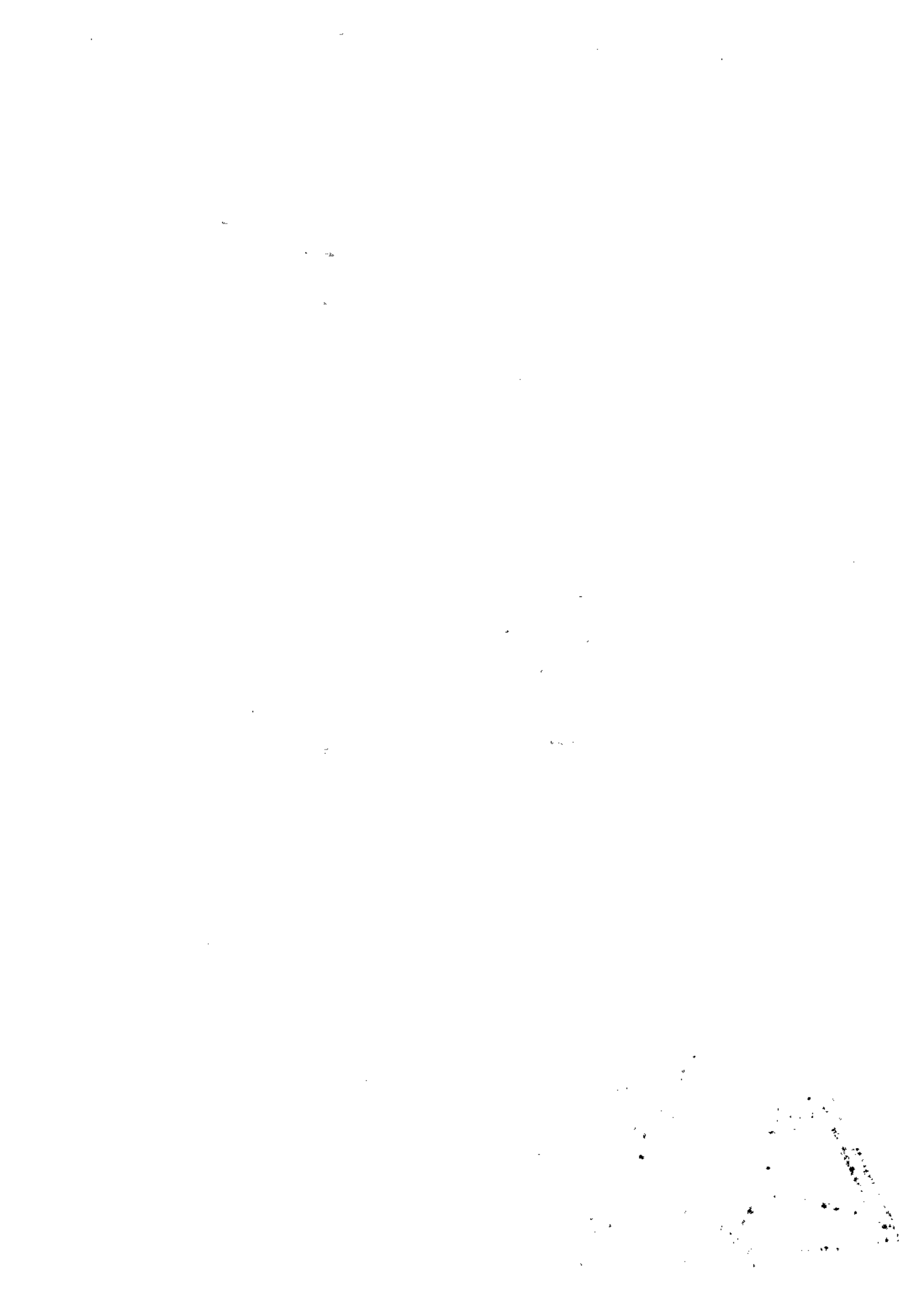

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص ب ٢٩

مكتبة المعارف
أبناء لطفي آلا
هـ ٦٥٣٣١٢ ص.ب ٢٥٧١ - ١١